الاعتقاد والشكّ في روايات عائد خصباك

قراءة في ضوء الاقتضاء السرديّ

أ.د. عليّ إبراهيم محمّد الباحثة: شيماء حديد دانة

جامعة بابل/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

Croyance and Doubt in Aiaad khsbak's novels, reading on basis of narration implicature

Prof. Dr.Ali Ibrahim Mohammed Research.Shimaa Hadeed Danaa

University of Babylon / College of Education for the Humanities

Ali50ibrahim@gmail.com Shimaahadeed1959@gmail.com

Abstract

The multiplicity of critical theories implicitly states that there are continuous changes in the social, economic and political structures, including the rational theories that try to accommodate the active potentials and actions that seek to produce a true history that achieves the legitimacy of survival that requires that the human being is multidimensional and tries to reconcile with many of his mental aspects. This leads him to doubt what has turned him around and to reach a belief that is linked to acceptable and effective cognitive foundations It serves his interests and achieves them, directs the mind and behavior, searches for the principle of power, and the standard that captures the thought of the recipient and dominates it.

Keywords(The geography of the homeland, The generational relationship and the adoption of confrontation, Economic resistance and the wandering of political power)

الخلاصة:

إنّ تتعدد النظريات النقدية ينص ضمنا بأن هنالك تغيّرات مستمرة في البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بما تحمل من نظريات عقلانية تحاول أن تستوعب الإمكانات الفاعلة والأفعال التي تنشد إنتاج تاريخ حقيقي يحقق مشروعية البقاء التي تتطلب أن يكون الإنسان متعدد الأبعاد يحاول أن يتصالح مع العديد من جوانبه العقلية، وهذا يدفعه إلى الشكّ مما حوله والوصول إلى معتقد يرتبط بأسس معرفية مقبولة وفاعلة تخدم مصالحه وتحققها ، وتوجه العقل والسلوك ، وتبحث عن مبدأ القوة، والمعيار الذي يستحوذ على فكر المتلقي والهيمنة عليه.

الكلمات المفتاحية(جغرافية الوطن، علاقة الأجيال وتبني المواجهة، المقاومة الاقتصادية وتيه السلطة السياسية)

المقدمة:

يحاول الإنسان أن يعيش على وفق اقتضاء دنيوي تهيمن فيه أحداث ووقائع قد يجهل تمثلها، لحجب حقيقتها، هذه الحقيقة التي تعددت الطرق والأساليب للوصول إليها، وهو ما ينهض به الاقتضاء في بعده التداولي بوصفه معيارا نقديا يبحث عن العلامة التي((تعيش من خلال الاستعمال))[1347]، ، جعل ذلك المسوغ البحث عن محاور ثلاث تكون بمثابة مرشدا عمليا ترسم السلوك وتضع القوانين التي ينبغي أن يسير الفرد على مقتضاها في حياته اليومية، وتعمل على نجاح حياته وبقائها،هي:

1ـ جغرافية الوطن

2ـ علاقة الأجيال وتبني المواجهة

3ـ المقاومة الاقتصادية وتيه السلطة السياسية.

[1347] المقاربة التداولية، فرانسواز ارمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986: 22.

الاعـتـقـاد و الـشّـك في روايات عائد خصباك

عندما تكون وظيفة العقل هي التنظيم والتبويب لفعاليات الإنسان الحيوية، فهو يرتبط بالنفع المادي بما يؤمن وجود الإنسان في مجتمعه من خلال المهارة في الأداء وليس على وفق الصدق والكذب، فالمنفعة غاية الأفعال الإنسانية وهي التي تفسر الوجود على وفق القيمة النقدية الآنية، ويمكن أن تكون حقيقة إذا أصبحت جزءا من المستقبل أو حددت معالم مستقبل الفرد؛ بهذا أصبح العقل جزءا((من المادة المتغيرة... وإذا كان العقل كذلك، فالذات الإنسانية ليس كلها وجود مستقل عن العالم المادي، ولا يمكنها تجاوزه))[1348]، وبهذا أصبحت المادة/الطبيعة البؤرة المركزية في الوعي الإنساني والمرجعية الأساسية فيه وهو محور خلاف في فلسفة الحداثة، أيهما المركز هل الإنسان أو الطبيعة/المادة؟، توصف الأولى–الطبيعة– بذات النزعة الإنسانية والمتمحورة حول الذات والثانية–المادة– بوصفها حداثة مادية متمحورة حول الموضوع. وقد أدى هذا الخلاف إلى اهتزاز قناعة الإنسان بفلسفة الحداثة؛ لأن النزعة الإنسانية بدأت تنزاح نحو القيمة المادية والى نسق القوة بوصفه يحقق للذات الإنسانية البقاء والهيمنة على وفق قول (نيتشه) الذي ذهب إلى القول بأن فلسفة المعنى والقيم يجب أن تكون نقدية وإنكار تام للحقيقة بوصفها خطابا زائفا، احتكرته السلطة –باسم الدين والعلم والعقل والمادة والمطلق والجوهر– من اجل إلغاء الآخر وتهميشه، وذهب (نيتشه) كذلك إلى القول بأن الوجود ليس سوى صيرورة دائمة وتحوّل مستمر مُعلناً(موت الإله) الذي يموت معه كل مقدَّس في الفكر الأوروبي، حيث يتهشَّم المركز ويُلغى مفهوم الكلية والسببية والغائية تماماً ويُسدل الستار على عصر الميتافيزيقا((1349، إذ إن هذا نوع من التشكيك بمصداقية نقد فلسفة الحداثة بعد أن أصبح العالم آليا تحركه دوافع الإنسان وغرائزه بما يمتلك من القوة التي تحقق له البقاء والتوسع، فتترتب على ذلك أن القيم والأخلاق وحتى الدين يصنعها الإنسان ويوجهها على وفق ميوله ودوافعه، لعل ذلك التشكيك دفع إلى البحث عن حقيقة المعايير والقوانين التي كانت توجه الإنسان والكون بوصفها قوانين فيزياوية تكتشف بواسطة البحث العلمي والتجربة، وهذا البحث يبدأ بالشك في كل القوانين للوصول للحقيقة تلك الحقيقة التي تكتشفها المنفعة، وبهذا أصبح البحث العلمي يبحث عن طبيعة الأشياء والتخلي عن دراسة الظاهرة وقوانينها ومميزاتها، بوصف الوجود معنى((آني مرتبط بلحظة وجودية، وهذا يعني أنّنا لا نعرف الشيء(الظاهرة) من خلال ما يعطينا إياه من قيم وأحكام ومعان سابقة، وإنّما من خلال شعورنا القصدي تجاهه))[1350]، يمكن القول أن الوجود ظاهرة تحكمه قوانين الفكر، يجعل النظر إليه بوصفه علامة تحمل دالا ومدلولا اللذين يحيلان على دلالة وهي (الحقيقة) سواء يحددها العقل أو عالم المثل أو جودة العمل وردائته، أو تحددها المنفعة...الخ بحسب منطلقات واتجاه البحث؛ أدى ذلك إلى اختلاف الحقيقة وعدم وضوحها وظهورها بشكل يجعل الإنسان في حالة اغتراب، يدفعه هذا الاغتراب إلى((إثارة حالة الشك هو الدافع المباشر الوحيد من الصراع، وذلك لإرساء قواعد الاعتقاد))[1351] نفيا وقبولا؛ فيترتب على ذلك أن يعيش الإنسان حالة الاغتراب تجاه عالمه وما يحيط به، فيسعى إلى توجيه فكره إلى السيطرة على العالم وخلق قوانينه الخاصة، فإذا كان يبحث عن معرفة (الله) أو معرفة ذاته أو معرفة العالم فقد أصبح يبحث عن الطرق والسبل إلى خلق إله جديد والتقوقع على ذاته للحفاظ عليها وتسخير العالم لمصلحته، فضلا عن محاولته إلى فرض قوانينه وقيمه على الآخر بما يضمن وجوده ويحقق مصلحته، فيترتب على ذلك اختلاف الحقائق وتعدد الإله والقيم، ((ولكي يحيا الإنسان لابد له من أن يضع قيما، ومعنى هذا أن يفاضل ويوازن ويعطى لهذا الشيء من القيمة اكبر مما يعطيه للآخر، ويميل إلى هذا ولا يريد ذاك...))[1352]؛ أدى

[1348]) الحداثة وما بعد الحداثة، عبد الله المسيري، وفتحي التريكي، دار الفكر، ط3، دمشق، 2012 : 19.

[1349]) ينظر : إرادة القوة، فردريك نيتشة، ترجمة: فؤاد زكريا، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، 1970 :207 .

[1350]) الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، مطبعة الأرز، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 1997: 76.

[1351]) رواد الفلسفة الأمريكية ، تشارلز موريس، ترجمة : إبراهيم مصطفى ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1996 : 72

[1352]) نيتشه"خلاصة الفكر الأوربي"، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط5، الكويت، 1975 : 216 .

هذا إلى اختلاف اتجاه الإنسان وأساليبه في تحقيق ذاته، فالأولى السبل في ذلك التشكيك في ثوابت الوجود والقوانين الموجودة سلفا للوصل إلى معتقد يتوافق مع مصلحته وما يروم إليه.

إن النظر إلى الشك والاعتقاد بوصفهما معيارين حقيقيين للفعل، وهما للذين يحددان نوع السلوك الذي يتجه إليهما أو تتجه الفكرة إليهما لمعرفة الآثار العملية المتصورة أو المنبثقة منهما ونوع الإحساسات المتوقعة منهما، فضلا عن معرفة ردود الفعل التي تتهيأ لهما ويمكن تفسير الشك والاعتقاد من نتائجهما العلمية واخذ قيمتهما النقدية العملية ضمن تجربة الفرد، فيصبحان منهج لمواصلة العمل، وتغير الحقائق القائمة، وخلق حقيقة تكون ضمن نتائج التجربة الذاتية وخطأ هذه الحقيقة وصوابها يتوافق مع كيفية عملها، وبهذا يكون الشك والاعتقاد قواعد عمل يجب أن توافق بين العمل وإنجازه يقوم من خلال استقراء المدلولات النصية لهما التي تثبت صحتهما أو نفيها، لاستنباط المؤول النهائي لهما بوصف المؤول النهائي يحول إلى الموضوع المباشر وهذا ينهض في سياق تأويلي، أي يحيل الشك والاعتقاد إلى موضوع يخص المجتمع والأفراد من خلال المؤول؛ وبما أن الروايات نتاج لسيرورة قصدية ومصدر للتفكير ونتيجة لفكرة ما، تكشف عن المخزون الثقافي واللغوي والمعرفي فهي تهدف إلى إقناع المتلقي واستهلاك الحقيقة وإيصال المعنى المراد تحقيقه؛ أدى ذلك المعنى إلى النظر للرواية بوصفها بحثا غامضا تشير رموزها وعلاماتها إلى الوقائع وعلاقة الإنسان بمجتمعه ومعرفته الخاصة به، تحتاج تلك الظواهر في الرواية إلى تحديد أو تعين يبدأ بالشك ينتهي إلى تثبيت الشك أو نفيه للوصول إلى الاعتقاد/المعرفة، لأن الشك ((يتصل بكفاية العمليات المستخدمة في تحقيق الطريق الذي يحول الموقف المشكل إلى موقف محلول، فبدلاً من أن تكون هذه العمليات عاجزة وتشل حركة البحث تصبح فرصاً تنتهز لتحسين المنهاج المقومة للبحث))[1353]، فالشك حالة صراع يهدف للوصول إلى الاعتقاد ويؤدي في النهاية إلى نتيجة مستقلة وليست حالة هروب أو تحطيم المعتقدات والتقاليد وما استحوذ على ثقافة الفرد وتتحكم في أفعاله، وإنما يبحث عن الاعتقاد بوصفه ظاهرة مهيمنة في بنية المجتمع تحقق المنفعة والنجاح للفرد في مجتمعه، فيكون بذلك شكّ حقيقيا على وفق تسمية(بيرس) ويتطلب في الشكّ الحقيقي أن يؤدي إلى حالة من القلق والحيرة والتردد، ومن ثمة تحتاج إلى تعيين وتحديد دوره وأثره في البحث العلمي[1354] أي الوصول الوظيفة الوحيدة للتفكير فضلا عن ((قواعد للعمل))[1355]؛ لأن الاعتقاد ((يضعنا في حالة تأهب للعمل بطريقة معينة عندما تسنح الفرصة لذلك))[1356]، ويشترط في الاعتقاد أن يكون نافعا والحقيقة فيه تكون((مفيدة لأنها صحيحة وأنها صحيحة لأنها مفيدة))[1357]ومعيار

[1353]) البحث عن اليقين، جون ديوي : 220

[1354]) ينظر : حياة الفكر في العالم الجديد، زكي نجيب محمود : 159 وما بعدها .

[1355]) نمو البراجماتية ضمن داجوبرت ضمن داجوبرت د.رونز، فلسفة القرن العشرين، مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة، ترجمة،عثمان نوية، مؤسسة سجل العرب،القاهرة،1963 : 235 .

[1356]) الحكماء السبعة، فان وسب، ترجمة : يوسف الخال وأنيس فاخوري، دار مجلة الشعر، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، لبنان، 1963 : 318 .

[1357]) البراجماتية، والفلسفة العلمية، موريس كورنفورث، ترجمة: إبراهيم كبة، منشورات الثقافة الجديدة،بغداد، 1960 : 241 .

*) ورد لفظ الحقيقة في لسان العرب لابن منظور بوصفها ما((بلغ حقيقة الأمر أي يقين شأنه. وفي الحديث: لا يبلغ المؤمن حقيقة الإيمان حتى لا يعيب مسلما بعيب هو فيه؛ يعني خالص الإيمان ومحضه وكنهه. وحقيقة الرجل: ما يلزمه حفظه ومنعه ويحق عليه الدفاع عنه من أهل بيته؛ والعرب تقول: فلان يسوق الوسيقة وينسل الوديقة ويحمي الحقيقة... والحقيقة ما يحق عليه أن يحميه، وجمعها الحقائق. والحقيقة في اللغة:ما أقر في الاستعمال على أصل وضعه، والمجاز ماكان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة: وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة،...وحق الشيء يحق، بالكسر، حقا أي وجب... وأحققت الشيء أي أوجبته. وتحقق عنده الخبر أي صح. وحقق قوله وظنه تحقيقا أي صدق. وكلام محقق أي رصين... والحق: صدق الحديث.والحق: اليقين بعد الشك))، لسان العرب:3/ 243 (مادة حق)، وورد مفهوم الحقيقة في كتاب التعريفات للجرجاني بوصفها كل((اسم لما أريد به ما وضع له. وهي فعيلة من حق الشيء إذا ثبت ، بمعنى فاعلة، أي حقيق، والتاء فيه للنقل من الوصفية إلى الاسمية، كما في العلامة، لا للتأنيث. وفي الاصطلاح هي الكلمة

صحتها هو منفعتها، يمكن التساؤل ما الحقيقة؟ وما علاقتها باعتقادات الفرد وشكوكه؟* يمكن النظر للحقيقة ضمن الزمان والمكان الذي يفرضهما الوجود،و((ما تسفر عنه نتائج أفكارنا في المستقبل، وهي نتائج ذات طابع عملي، لأن النتائج لا تنشأ إلا من خلال العمل))[1358]، من خلال مطابقة الحقيقة للفكر والواقع الذي تنشأ عليه، أي تراعي النتائج النهائية الزمان والمكان والسبب لظهور حادثة أو خلق ظاهرة ما، فإذا((وجدنا قطنا يحترق، وبقربه النار، فهذه عبارة عن انطباعات حسية مبهمة، فلابد أن يتدخل العقل عن طريق الفهم بمقولاته المنطقية، مثل: الزمان، والمكان، والسببية، لكي نقول: إن النار هي سبب احتراق القطن. ومن ثم، يمكن القول: إن القطن والنار عبارة عن مدركات حسية، لكن السببية مفهوم عقلاني مجرد له علاقة بالعقل الخالص، وهو عبارة عن مبادئ منطيقة ومعرفية مجردة وكلية، بها يدرك العقل المعطيات الخارجية، وينظمها بشكل منظم ومرتب))[1359]، أي يكون مصدر الحقيقة العلم والتجربة معا بحسب رأي (كانط)، وعندما يكون العقل غير مقيد يحمل طاقات إدراكية غير مقيدة أو محددة، يقتضي دوره أن يجعل الكون علامة، ومعرفة خلق هذا الكون ومعرفة حقائق النفس الإنسانية والماورائيات الحاكمة موضوعا، يتطلب هذا الموضوع البحث عن حقيقته وقياس أبعاده ومحتوياته وحدوده التي تجعله قابلا للتعيين بدقة، قد يصل البحث إلى اعتقاد ينفي الشك، أو شك يبدد الاعتقاد وينفيه، فالشك / الاعتقاد ثنائيتان تلتقيان وعندما يستحضران في خطاب معين تتفق فيهما دلالة النص/ الخطاب لدلالة احدهما على الآخر في إيصال الفكرة أو توحيد المعنى، ويمكن استحضار الثنائيتين في روايات (عائد خصباك)، لأنهما يحددان النتائج القيمة الأخلاقية للعمل، تلك النتائج التي تحددها طبيعة الرغبة والاستعداد، فيترتب على ذلك معرفة الاقتضاء السردي لهاتين الثنائيتين بوصفهما حكما على الأفعال ومدى الاستعداد والرغبة للفعل والنتائج المادية الملموسة ((فالحق خاضع لنتائج البحث المتصل، وهذه ليست حقائق نهائية بل مؤقته، وكلما امتد نطاق البحث قرب المرء من الحق))[1360]. والرواية جزءا من اللغة التي تكون (اللغة) المرجعية التأسيسية الثقافية والمعرفية والفكرية لهوية أي نص من النصوص الأدبية وغير الأدبية، فضلا عن تمثل كذلك سلطة أيديولوجية أو أنثروبولوجية أو ألسنية. ومن خلال اللغة يمكن الولوج إلى السياق أو بين الناس بمختلف ثقافتهم، إذ يمكن للغة أنْ تنتج خطابات متنوعة ومصائر مشتركة تتداولها من أجل تنميط الأجيال بها وصنع جيل جديدا يحمل خزينها الثقافي والمعرفي والخبرات المعرفية المتراكمة، لو تمعنا في رواية (القمر الصحراوي) التي تكشف عن روح المغامرة في الصحراء بين السلطتين العراقية والإيرانية، إذ حاولت الرواية أن ترصد بطولات الجيش العراقي دفاعا عن مقدساته والحفاظ على أرضه وهم يصارعون معاناة الألم، وكأن الحرب قضية ذاتية فتبرز قضية الوطن الذات، وكأن صورة الوطن هي صورة الشخص نفسه، فالرواية في بناءها التقليدي أدخل الروائي(عائد خصباك) ذاته عبر حواره مع الشخصيتين المحورتين(يوسف كاظم و حميد ناصر) وهما يحاولان استذكار الشخصيتين بذكرياتهم القديمة وتطلعاتهم المستقبلية وأفعالهم الحاضرة، وكأنما اجتمعت فيهما الثورة والتضحية.

ـ جغرافية الوطن في رواية القمر الصحراوي:

تتكون الرواية من قسمين الأول يحاور به الراوي الشخصية المحورية في الرواية أي شخصية(يوسف كاظم) والمحور الآخر يحاور به شخصية(حميد ناصر) بوصفهما صوتين المقاتل اللذين يجمعان خيوط الرواية، ويحس القارئ بانفعال الحوار واكتنازه مواقف عاطفية أصيلة القائمة على التعبير عن الذات في لحظات الانفعال وهما يبحثان عن حلمهما في تحقيق المستحيل وهو خلود اسميها مع اسم الوطن، أي ما يسعى إلى الحفاظ على بقائه والسمو بذاته نحو الكمال. وهذا المعنى لا يخلو من المنفعة الذاتية التي يسعى إليها كل فرد في ساحة المعركة أن يدخل التاريخ أو يسهم في رسم خارطة الوطن يقول حميد ناصر:((الأمس

المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب، والشيء الثابت قطعا ويقينا. يقال حق الشيء إذا ثبت. وهي اسم للشيء المستقر في محله، وما به الشيء هوهو كالحيوان الناطق للإنسان))، كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1985: 94، 95 .

[1358]) نظرية القيمة في الفكر المعاصر، صلاح قنصوة، دار الثقافة، 1981 : 129 .

[1359]) مفهوم الحقيقة في الخطاب الفلسفي، جميل حمداوي، شبكة اللوكة: 22، 23 .

[1360]) البراجماتية :241 .

ليس يوما من أيامي العادية، كان يوما غير عادي بالمرة، لقد صادفت ما لم أتوقعه لقد حققت شيئا كنت قد فقدت كل أمل في تحقيقه))[1361] يقوم النص بنقطة التحول من الأمس الماضي إلى المستقبل المرتقب هو إثبات الوجود بعد محاولته إنجاز المهمة التي كلف بها وهي أسر القناص الذي هتك بالجنود أي أنها محاولة ((لتحقيق الذات فرصة للبروز عند المقاتل أثناء الحرب))[1362]، ولكن من الغفلة هي البحث عما وراء الواقع لا غنى للإنسان فيه. لو تمعنا في النص فالإنسان في الحرب يفقد كل ما يملك ويفقد ذاته فهو أما ينجو وأما يموت، وهذا المفهوم وتحريض الفرد إلى القتال وتداوله باسم البطولة والتضحية هي محاولة صناعة ضحية أخرى، فضلا عن السخرية من الذات التي تضحي فهو لا يعلم لمن يضحي وما هي العواقب التي تروم إليه الأمور، ففكرة المقاومة منهج أو مرشد عملي ترسم سلوك الفرد وتحافظ على بقائه باسم الوطنية والانتماء:((انظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين براثن الموت ولو حكم عقله المجرد لما فعل... ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة...))[1363]؛ أن التعامل مع الفرد المقاتل كان معتمدا على الدليل العقلي بمؤثرات لاشعورية كالعاطفة والمصلحة العامة والانوية، لأن الإنسان اجتماعي بطبعه((ينشأ في تراثية اجتماعية معينة يخضع لنوع من التنويم نسميه "التنويم الاجتماعي" فهو ينظر في الأمور من خلال المفاهيم والمعتقدات التي تنشأ عليها، وكلما كان المجتمع الذي يعيش فيه أكثر انغلاقا وانعزالا كان التنويم الاجتماعي أقوى فيه تأثيرا))[1364]؛ فالإنسان يسعى إلى تحقيق منفعته الشخصية والمعنوية ولعل الثانية تأتي بالدرجة الأولى وأكثر تأثيرا في حياته؛ لأن فيها (المنفعة المعنوية) يحقق الإنسان فيها رفع مكانته الاجتماعية وتحقيق أناته، وهذه الصورة تتحقق في بطولة الإنسان وصموده في مراحل حياته ولحظات التصالح مع الذات التي تدفعه إلى اكتشاف فرصة تحقق ذلك، ومن تلك الفرص استخدام سلاحه ليرسم صورة تسمو بالذات ورافضة للذل والخضوع للآخر، ففي ساحة المعركة يكون ((كل ما هو إنساني في لحظات مثل هذه يقاس بالطريقة غير المألوفة، بالحسابات التي تأخذ لغتها من لغة الشعر، فالمسافة بينك وبين الدبابات يمكن قياسها بكمية الدماء التي ستنزف وليست بالأمتار والكيلومترات،أن تقدم الدبابات متراً أكثر يعني أنها تضعك في النهاية تحت مخالب جنازيرها وتسوي بك الأرض، لا، أن المتر الذي يسقط تحت أثقالها يعني أنها تضعك تحت المطرقة التي ستظل تضرب فوق رأسك بكل قوتها حتى تقبل الذل))[1365] تكشف اللغة بإمكاناتها الدلالية عن مشهد حواري داخل بنية الخطاب بصورة سردية تظهر فيها ذات المتكلم وهو يحاور نفسه في مشهد واحد وكيفية التأثير وخلق إنسان يضحي بنفسه حفاظا على خلوده وهذه لغة الاستهلاك بالذات ترسم صورة توقع الأحداث الواقعية متغيرة في ساحة المعركة، وتمزق الذات بين الحاضر والمستقبل بالرغم من امتلاك الشخصية خاصية الوعي والحضور القصدي، لو تمعنا في النص نجد استحضار الكلمات(كل ما هو إنساني، لغة الشعر، وحدات القياس في المعركة "كمية الدماء" والمطرقة، الذل) وكلها ألفاظ تداولية تقتضي من الشخصية في ساحة المعركة إيجاد الطريقة المناسبة لخلق ظروف وتهيئة الأجواء المناسبة لتساعدها على البقاء من خلال تحقيق التوافق مع ما يدور حوله من متغيرات وظروف التي تقتضي ذلك، إذ إنها(الشخصية)هي الوحيدة المعنية في خلق تلك الظروف وذلك من خلال استخدام العقل لإنتاج المعنى داخل المعركة وترجمته إلى سلوك يعود عليها بالمنفعة ويحافظ على بقائها، أما استحضار لغة الشعر بوصفه حاملا للأفكار واللغة وبواسطتها يتم نقل تلك الأفكار سواء أكان على شكل حوار بين الشخصيات أم على شكل منولوجات داخلية؛ فيتم بذلك فهم هدف أو غاية الشخصية وأبعادها وقيمها، ويتم بلغة الشعر التواصل فيما بين الشخصيات ومعرفة مشاعرها ودوافعها النفسية فضلا عن تواصلها مع المتلقي/القارئ، بوصف القصيدة صوتا منفعلا وحماسيا، ففي الحرب يؤجج المشاعر ويدفعها إلى

[1361]) القمر الصحراوي : 55 .

[1362]) القمر الصحراوي : 56 .

[1363]) قصة الفلسفة الحديثة (السلسلة الفلسفية)، تصنيف : أحمد أمين و زكي نجيب محفوظ :2 / 626 .

[1364]) في النفس والمجتمع العراقي، علي الوردي، دار السعدون : 156 .

[1365]) القمر الصحراوي : 72 .

تحقيق موتا شريفا أو حياة كريمة ترفض الذل والخضوع للعدو، لعل هذه الألفاظ تتداولها الفنون الأدبية وغير الأدبية وهي تحتمل بأنها تسخر من الإنسان وتدفعه إلى الهوان والخسارة وتجعله تحت المطرقة عندما تجعله ينساق وراء شعارات تدفعه للتضحية بنفسه باسم الضمير الإنساني أو رفض الهزيمة أو الشهادة إذ أنها– الضمير الإنساني والنصر والشهادة – تهدف إلى استهلاك والتجارة بالنفس الإنسانية وصنع ذاتا أخرى، تسعى إلى التضحية بنفسها من أجل أحلام واهية قد تتحقق أو لم تتحقق، وهذا الموقف تعلن عنه حكاية شخصية (يوسف كاظم) معلم الجغرافية الذي أختار طريق الشهادة للهروب من واقعه، وكأن هنالك صوتا يدفعه إلى صناعة التاريخ ودماؤه هي المداد التي تكتب النص ويدرسه طلابه في صفوفهم فعندما تذكر حدود وطنهم يتذكرون أستاذهم معلم الجغرافية مع هذه الحدود. إن غاية المقاتل في ساحة المعارك هو أن يبقى حاضرا في الذاكرة ومؤثرا فيها بوصفها أحد الدعائم التي أسهمت في بناء المستقبل والحفاظ على الأرض وتدعوا الآخرين أن يسيروا في الطريق الذي سنه لهم: ((في أول معرفتي كانت ذاته تبرز واضحة عندما تختلف معه في الرأي حول قضية معينة أو معالجة بعض الأمور، ولكن الحرب كسرت شوكة تمسكه الذاتي، لقد أوجدت عنده مع مرور الأيام الرغبة الملحة في أن يطلق لنشاطه العنان، وأن يعطي من نفسه، لقد حزم أمره،على أن لا يأخذ بل يعطي، وأن يحرق نفسه في عمل بطولي عظيم يعود بالنفع على الشعب وعلى جميع البشر، ويرفع رأسه عاليا، وهكذا أفسحت له ظروف الحرب أن يدوس على الأعشاب الطفيلية الضارة لمشاعره، وأن ينبت بدلها نواياه الطيبة، إذن فقد أصبح يقف وجها لوجه أمام الأخطاء فيصر على معالجتها وتصحيحها...))[1366]، فحوار شخصية(حميد ناصر) مع نفسه وهو يتحدث عن غاية وهدف شخصية(يوسف كاظم) شكل من أشكال التواصل يحقق الصلة بينهما ويبين موقع كل منهما في ساحة المعركة، يسعى (يوسف كاظم) إلى تحقيق حياة كريمة في الوقت نفسه يرفض الموت المجاني؛ لأنه يطلب حياة خالدة، فيكون موته أو تحقيق الحياة الكريمة وجهان لعملة واحدة، ومن ثمة تناقض الشخصية في حقيقة ذاتها هدفها الإنساني من جهتين الأولى عندما تقيس معايير الحرب بكثرة إراقة الدماء وحالة استغلال القوي للضعيف ولعل رمزية المطرقة تعبر عن ظاهرة قانونية في الحرب بوصفها إحدى أدوات الدفاع عن النفس والأرض بيد أنها تجسد حالة الاستغلال ومحاولة كسر الخط التواصل الإنسان مع أخيه الإنسان، عندما يكون سعي الإنسان إلى تحقيق حلمه على حساب قيمه ومعتقداته والبحث عن السبل التي تخلق مستقبله: ((آه كانت نزهة صحراوية فريدة من نوعها... ما هي أخبار ذلك القناص؟

ـ أسرناه، رجعنا به ورأسه بين قدميه، قل لي يا يوسف لماذا كان ذلك الأسير ينكس رأسه؟ بالتأكيد لم يكن يبحث عن مداسه...

ـ بل هو يفعل ذلك لئلا يرى القمر في السماء.

ضحك حميد وقال:

ـ لا عندي فكرة أخرى، أنه لا ينكس رأسه، ولكنه يغطس أسفل الموجة العاتية للتاريخ ويهز نفسه مثل الكلاب المستحمة عندما تتجاوزهم تلك الموجة، خذ مثلا: اترك ذلك القناص في مكانه داخل السيارة الحوضية، ستراه يواصل العيش في عالمه، مع قناصته دون أن يفكر إلا بالرصاص الغادر الذي يطلقه كلما يشخص أمامه رأس أو يد أو جسم، لا يفكر إلا بالرصاص، تعرف لماذا؟ لأنه خلع أخلاقيات التاريخ مع حذائه))[1367] أفكار البطولة تقاس بكمية الدماء التي يسببها المقاتل، وهذه الأفكار تحمل قيما نفعية تعود لأصحابها لأنها أفكار تحقق على ارض الواقع، وتتداول بصورة متعددة تتواصل من خلاله مع الحياة تتطلب من الإنسان الذكاء وإصرار وقوة وعزيمة، وأن يرفض التشاؤم، مما يكرس أنموذج (يوسف كاظم وحميد ناصر)حقيقة رأسمالية منتجة ومؤثرة في صناعة نهضة وطنية اقتصادية؛ لأنها تعتمد أساليب إقناعية ومؤثرة، تتحكم في الوجود الإنساني تدعي تأمين حرية الفرد ورغباته الإنسانية الفذة، وبناء جوهره الإنساني، وهذا ما ظهر في صورة الكلب الذي انتحر لرفض قبول صاحبه إليه؛ فجاءت رمزية (الكلب) مفعمة بالدلالة بوصفه بنية نصية مؤثرة داخل السرد تناغم صورة (الكلب) الزمن النفسي للمقاتلين فكلاهما يبتغي تحقيق مردود

[1366]) القمر الصحراوي : 82 .

[1367]) القمر الصحراوي :54 .

سواء أكان ذلك المردود قبول اخر(الكلب) أم كان المردود الانتصار(المقاتلين)، حدد (الكلب) طريقه عندما رفضه صاحبه، وكانت قصة(الكلب) التي سردها آمر الحضيرة تلزم المقاتلين بأن ينحو منحى الكلب أما حصول المبتغى أو ضرب رؤوسهم بأقرب شجرة كما فعل (الكلب)، إذ يقول (آمر الحضيرة): ((تعرف لو أنك استئت من كلامي، أو على الأقل لم تجبني، لما غفرت لنفسي هذا الذنب، دون شك أني لم افعل ذلك ولكني أريد أن أصور لك مشاعري نحوك، وأريد أن أوضح لك شيئا:... كان عندنا كلب، وكان كلما يراني يركض ويقفز وينبح فرحا، وفي يوم كنت راجعا إلى البيت في إجازة، رآني من بعيد فنبح وركض ودار حول رجلي ودخل بينهما وهو يهز ذيله، فطردته بدفعة من قدمي ونهرته بصوت حاد، فوقف ينظر إلي غير مصدق، ولو كان يعرف الكلام لقال هل هو أنت الذي تفعل هذا معي، لكنه لم يقل هذا لأنه كلب، فركض مبتعدا ولم يعد، وفي صباح اليوم التالي فتشت عنه وجدته ميتاً قرب نخلة ورأسه قد تحطم، وأغلب الظن أنه ضربه بجذع تلك النخلة))[1368] شكل الكلب معادلا موضوعيا لمصير الذي ستؤول إليه ذات المقاتلين من جهة، ومن جهة أخرى أن سرد قصة الكلب الحصول على أكبر قدر من المنافع المعركة، فضلا عن صناعة مستقبله من الحاضر المصنوع ورؤية لمصير الفرد البشري، إذ ترتبط السلطة ارتباطا بالأنوية التي تقابل المال، فـ(يوسف كاظم) في أعلى درجات انسجامه الوحي والعاطفي لم يتخل عن غايته في البحث عن التفرد والتمييز: ((منذ طفولتي وأنا أتمنى أن أصادف فجأة شيئا رائعا مختلفا كل الاختلاف، أن انظر من فوق حائط لأراه فجأة أو افتح بابا، وأخطو إليه، أنا أتحدث عن التقييم، أنت تفهمني بالطبع... كل إنسان تقريبا يريد أن يمتلك هذا الشيء أو ذاك، لكني لا أنكر أن الجميع يستطيعون أن يعملوا شيئا صالحا معا، أن ينجزوا حدثا تدوخ وكالات الأنباء في نقله وفي تحليله))[1369]، أي حصول قفزة زمانية ومكانية تحقق أمنيات (يوسف كاظم) بوصفها اندماجا كليا لتبوح من الظاهر لتخاطب به الباطن؛ فالتفصيلات التي تقدمها الرواية وعبر المدة الملتهبة في ساحة المعركة للأحداث الرواية يظهر تفاوت طبقي بين المقاتلين وخلق طبقة تصنع الحياة في المعركة والثقافية؛ لأن هذه الطبقة هم طبقة الموظفون (شخصية يوسف كاظم)، فتحاول أن تحافظ على وظيفتها وهي تتصادم بالآخر المعادي، إذ حاول (يوسف كاظم) تسليع البطولة وتأطيرها وتحقيق ذات مثالية، هذا بحد ذاته يثير الشك بأنَّ الخطاب السابق أنوي يحاول أن يشد الانتباه إلى سلوك وأداء الشخصية–يوسف كاظم– والتأثير في المتلقي؛ ليصبح جزءاً من سلوكه وفعله وكأن البطولة والتضحية كلاهما حجة ودليل على وطنية الفرد ولابد من توصيله بين الأجيال ويقتضي هذا التوصيل نقل معارف السابقين وتجاربهم، بوصفها استمرارا للحياة وتواصلها، حتى أصبح فعل (يوسف كاظم) يشكل الخبرة اليومية التي لابد أن تؤثر في عقل المتلقي وتنطبع على سلوكه؛ فمسألة المقاومة حالة مستمرة ويستمر معها السلوك، بيد أن هنالك–أحيانا –خيانة التجربة في العمل والسلوك تؤدي إلى الشك فتهتز الثقة لدى المتلقي وتفقد القدرة على التكيف فنبحث عن الاعتقاد إزالة حالة الشك، وخلق سلوك يغير بناء الفعل ويعيد التوازن لدى المتلقي وتأسيس قاعدة للفعل من خلال اختراع حقيقية تعود بالنفع وتحقيق غايات وأهداف منشودة.

وليس غريبا أن يكون قول (عائد خصباك) عن الحرب التي يشترك بها القمر والصحراء –سواء أكانت حقيقة أو مجازا– ونهض بها جيل غرست عروشهم في الأرض يتنفسوا هواءها وخرجوا من مخابئها ليستعيدوا كرامتهم ورفض مصادرة حقوقهم ومعنى وجودهم الإنساني، هذه الصورة التي تتداولها الفنون الأدبية وتخلق أمورا غائبة وجعلها حاضرة وتتحرك في شرايين الأفراد في المجتمع وكأنها صورة إحلال الممكن محل الواقعي ورسم طريقا للأجيال في خلق مستقبلهم، وهي بذلك تخلق جيلا آخرا يحمل حلم الأجيال السابقة ويعطي عطاءهم، أي تصادر الفنون الأدبية وغير الأدبية في مصائر الإنسان بعيدا وإقناعه بالواقع الذي يطمح بالتعبير عنه وتحقيق التأثير الذي يسعى إليه القارئ بمختلف منطلقاته، إذ جعل (عائد خصباك) شخصياته عندما تنحى هذا الفعل سلوكها الواقعي والعملي تستطيع من خلاله أن تتواصل مع الحياة وان يبنوا أفكارا يمكن تحقيقها، إذ يقول: ((كل ذلك جائز دون

[1368]) القمر الصحراوي : 85 .

[1369]) القمر الصحراوي : 58 .

أن يكون لتحقيق الذات فرصة للبروز، عند المقاتل أثناء الحرب شيئان: التضحية والبطولة))[1370]، فالاعتقاد الراسخ والذي يقتضي من الفرد داخل المجتمع أن يضحي بنفسه من أجل الوطن باسم التضحية والبطولة يعتريه الشك عندما تكون غاية الفرد نفسه تحقيق الذات وفرصة للتمييز عن الآخرين تكون بمثابة المثل يضرب في المحافل والندوات وغيرها.

وعندما لا تكون للشخصيات غاية بأن تقف على رسم مأساة الإنسان في مجتمعه؛عندما لا يصارع الفرد داخل مجتمعه السلطة ورموزها؛ وإنما يحاول أن يخلق صراعا ما بين فكرا يناصر السلطة(الجيش العراقيّ) وسلطة أخرى تسعى إلى قتل إرادة الفرد في الدفاع عن وطنه(القوات الإيرانيّة)، فكل منهما يمثل سلطة القوة ويمتلك قوة البطش بالآخر وسعي إلى قتل إرادته لينقذ بلاده، ولاسيما عندما تعيش البلاد أزمة الحروب والهجمات وإشاعة الموت في الحياة. تمظهر ذلك المفهوم في رواية(الكبار والصغار) التي تحاول أن تهيئ لبناء فعل مؤثر ينبئ ببناء جيل يحمل ما بناه من سبقهم،

ـ علاقة الأجيال وتبني المواجهة:

إن علاقة الأجيال هي علاقة أخذ وعطاء زراعة وحصاد، إذ يتطلب من السلف أن يكونوا أسوة للاجيال اللاحقة، وهذا المعنى تمخض من عنوان الرواية (الكبار والصغار)، أي يهيئ الكبار الطريق للأجيال القادمة التي تشاهد الأحداث وتتصارع فيما بينهم ممن يسبق في السباق الجري الذي يعقدانه في شارع مدينتهم (الطيب)بالرغم من دوي الانفجار وصوت الدبابات والهجوم الذي تعرضوا إليه إثناء ممارستهم ذلك السباق:((هكذا جرى كل شيء، قبل أن تصفر قذيفة في الأعلى، فانتزع صوتها العيون والأذان، وكانت للحظة، تلك التي نزل فيها الصوت أكثر، كأنها كابوس لن يلبثوا أن يفيقوا منه، وإذا بالقذيفة النازلة، بينما صفيرها في أوج قوته... فالعدو الذي أطلق هذه القذيفة لم يكن محتاجا للإعلان عن نيته بقصف الشارع الذي يلهو فيه فراس وسهير وعمار مع حشد الصبية والأمهات والأخوات الصغيرات...))[1371]وكأن ذلك السباق الذي يجريه الصبية في الشوارع معادلا موضوعيا للثورة ومحاولة الخلاص من العدو التي يقوم بها الكبار(فؤاد وعبد الرزاق وسعد ورافع) ورفاقهم:((في الساعة الثانية تمكن المقاتلون من صدّ هجوم العدو ووقف تقدمه وفي الساعة الرابعة كان هناك استقرارا نسبي، قلت انفجارات القذائف واطلاقات المدفعية وكل أنواع الأسلحة وبعد ذلك بدأ الهجوم المقابل، وحاول العدو التشبث في مواقعه التي تقدم لأخذها، وسقط الموقع الأول للعدو، وحاولت مجموعة كبيرة من قواته الهرب وتجاوز المقاتلون الموقع الثاني ثم الثالث...))[1372].

أما (عائد خصباك) فقد كان مشاركا فاعلا في الحدث أو منفعلا لأنه جزءا من مجتمعه وكان غارقا في الوضع السياسي وكانت قضية الثورة هاجسه الذي تترجمها رواياته، وحاول إيصال افكاره وتشكيك المتلقي بما يدور حوله، فكانت الشخصيات قناعا يرتديه في بناء الحدث وانفعال الشخصيات يحاول أن يرسم معادلة ما بين الموت والحياة، حتى أصبحت الأزمة التي ترسمها رواية(الكبار والصغار) أزمة الدفاع عن الوطن والمقدسات وبناء شخصية تعيش صراعا ما بين الموت والحياة؛ لينتصر الموت بوصفه الحقيقة الوحيدة المانحة للحياة وإنقاذ الأرض، وظهر هذا المفهوم في الأصدقاء الأربعة(فؤاد، وعبد الرزاق، وسعد ورافع) فكلاهم يسعى إلى تحقيق معادلة صعبة الحدوث وهي أن يموت ليحيا الآخرين ويحقق سعادة شعبه وبهذا سيكون تضحية الذات انتصارا للذات نفسها؛ لأنه تنزه من روح الاستسلام، وتكون تلك الروح حاضرة عند(عائد خصباك) الذي يستجلي أبعاد وطنه ويقترب منها ليمثلها في أدبه مصورا علاقة الإنسان بواقعه وتسجيلا للوقائع، فحدد بذلك أبعاد صورة مستقبل البلاد التي تنبئ بغد جديد تنهض به الأجيال القادمة يقول فؤاد: ((من الصعب أن تنسى الأرض ما كتب عليها أنها ليست سبورة في صف. قال ذلك لرفاقه في الحضيرة وهو يتطلع إلى الدبابات المحروقة والدروع التي أعطبت. وبغض النظر عن عدتهم التي دمرت هناك على البعد كانوا هم على ما هم عليه الآن النهاية الفاصلة لذلك الاندحار...لم يكن الفرد منهم سوى شخص خائف، بعد أن تم تطويقهم، وأصبحوا

[1370]) القمر الصحراوي : 56 .

[1371])الكبار والصغار : 66 .

[1372]) الكبار والصغار: 125، 126 .

جميعا على مرمى حجر ولا يستطيع الفرد منهم حتى النظر إلى جراحه البليغة، وقد جلبت رائحتها الذباب والهوام، فأخذت تحط على قطرات الدماء التي تخثرت والتي لم تتخثر بعد، كانت تتصاعد منهم رائحة كريهة كأنهم قبور مفتوحة، ودون شك أنهم جميعا يلعنون الساعة التي قادتهم إلى ارض ليست أرضهم قادتهم إلى كارثتهم))[1373] يكشف (عائد خصباك)عبر هذه اللغة المنفعلة عن صراع خارجي(المقاومة)لسلطة العدو؛ فتحاول الشخصيات(المقاتل)إثبات وجوده وتحقيق الذات ضد السلطة التي تقف بوجه الحياة، فيتخذ (عائد خصباك) رسم واقع معادل للحياة في جوانبها المتعددة سلبا أو إيجابا، نراه –أحيانا– يؤطر حركة الشخصيات في انفعالاتهم تجاه العدو بالكره والعنف أو بالخوف تارة أخرى، فتسلك الرواية مسلكا واقعيا يشبه الحياة التي يعيشها الفرد داخل مجتمعه أو احتمال حدوثها بدلالات غنية اقتضى هذا التصوير تحقيق القيمة الفورية من خلال دعوى شعاراتية تبشيرية تهدف إلى الحفاظ على المجتمع بيد أنها تهدف إلى خلق سلسلة من الولاءات للسلطة القائمة وتحقيق مصالحها، يتحكم في مصير الذات؛ فأصبحت السلطة السياسية هي السلطة الوحيدة المؤثرة في الذات وبناء مؤثر سلطوي فاعل جعلت من المقاومة عن الوطن بتصور الشخصية((مذاكرة الدرس لحفظ في الذاكرة والنفس فهي جزء من موضوع هذه الأرض))[1374]؛ حتى أصبحت الشخصيات تعد أرض الوطن: ((الكتاب الكبير المليء بالخرائط وكل أنواع المسائل التي تحتاج إلى حلول، فأننا نرى بها أنفسنا، ساعين إلى تحقيق كرامتنا))[1375]، فتلبي سلطات المجتمع تواصلاً مع الشروط الجوهرية التي تتحقق فيها الذات فتحاول تلك الشخصيات تبني عالمها على وفق إطار السلطة القائمة؛ للوصول إلى عمق الوجود بانتمائهم للوطن والدفاع عنه والتماهي من اجله، ولعل هذه الوسيلة تمثل طريقاً لتحقيق علاقات ذات طبيعة نفعية تحققت من خلال انتصار الذات وتحقيق الاتحاد مع المطلق، يقول (فؤاد):((أرى أن الأحكام التي يطلقها سعد، لا تصدر عن نقض في الخبرة، ولذلك فأنها لا يمكن أن تصطدم بعدم تحقيق غايتها، بقدر اتساع أرض الطيب المكشوفة من حولنا))[1376]، يمكن القول أن (عائد خصباك) كان مباشرا في إشاراته إلى تأثير السلطة السياسية في ذات الفرد داخل المجتمع وتأجيج نوازعه، إذ يحاول وضع قوانين والتزامات في بناء الذات الثائرة للوطن والانتماء له وجعل العامل السياسي مؤثرا على سلوك الشخصيات: ((إلا يفيقوا على أنفسهم بعد كل ما حصل صباح أمس، عندما دمر غزوهم وسحق وأبيد، رافع، حدث ابنك بكل ذلك.

ـ سأقول له كل ما جرى، سأحدثه عن الحفلة التي سيقيمها رفاقي مبتهجين، وهم يطلقون الرصاص في الفضاء، ويوزعون عصير الفاكهة وماء الورد، سأقول له أنك كنت أكثرهم حماسا، وكيف غنيت من اجله، سأحدثه عن الإحساس بالبطولة الذي يتوزع على الناس بالتساوي، ولكنه لا يظهر إلا في اللحظات الحاسمة، سأقول له أننا وجدنا لحظتنا الحاسمة على حدود الوطن في منطقة الطيب سأقرأ له كتاب الجغرافية، لئلا يرى الحدود مجرد خطوط متعرجة على الورق كما كنا نقراها من قبل))[1377] حقق (سعد وعبد الرزاق) الوجود الحقيقي للحياة؛ لأن((الوجود الحقيقي هو استعداد الإنسان للموت))[1378]؛ فقبول الذات للخطاب المعرفي الإنساني للسلطة بوصفها الرؤية الحقيقية والمعرفة، الذي يعود مبعثه إلى الوجود الحقيقي للفرد ذلك الخطاب المفتوح على الماضي والحلم والطفولة:((لقد وقع الأمر كما هو واستشهد سعد.

ـ قل لي أي شيء آخر، وسأكون على استعداد تام لتصديقك.

[1373]) الكبار والصغار : 126 – 129 .

[1374]) الكبار والصغار : 100 .

[1375]) الكبار والصغار : 100 .

[1376]) الكبار والصغار : 98 .

[1377]) الكبار والصغار : 154 .

[1378]) دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية، د قيس هادي أحمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2007 : 265/2 .

ـ لقد استشهد سعد كبطل، هذه حقيقة فهمها الجميع وسيظلون يذكرونها كمثل يضربونه للآخرين إذا استدعى الأمر ذلك))[1379] هذه الحقيقة التي يراها المقاتل في ساحة المعركة تحاول رسم خطوط إنقاذ الذات من الاستلاب والاستعمار من جهة، وزرع قيم جديدة وتقوية إحساس الأجيال بعالمهم الداخلي لتنقيته من الشوائب حتى تصبّ تلك الذات في منفعة عالمها الخارجي من جهة أخرى، فتكشف عن أقنعة الزيف في العالم الخارجي وتصارع المصالح، وتكون قادرة على تتبع تطور الوعي الإنساني، ولاسيما عندما تكون الشخصيات ذات حضور قوي تحمل فكرا مؤثرا وعميقا ويمكن التنبؤ بردود أفعالها ومستقبلها: ((كان بمستطاع المرء رؤية المقاتلين قبل ذلك، بعد أن مالت الشمس نحو الغروب، كأنهم أولئك الذين يرون في هذا المكان كل يوم، وهكذا منذ فترة، فأن الغروب هو نفس الغروب الذي مرّ يوم أمس، والذي مرّ قبل ذلك بكثير، فلم تتغير طريقة المقاتلين الدفاعية عن الأرض التي هم عليها... ما أكثر ما شهد هذا المكان قبل الآن من ليال كهذه الليلة، التي اختفى فيها القمر، وما أكثر من سهروا في هذا المكان باذلين جهدا خاصا، ولم تكن الاستعدادات التي يعدها المقاتلون بحسب ميول اللحظة الحاضرة، أو نزوات المصادفة العابرة، التي يفعلها المرء مرة وقد لا يعود إليها مرة ثانية، أن كل ذلك يمت إلى الواقعية بما فيه الكفاية))[1380] إن الثورة تقود إلى ولادة حياة واضحة المعالم يتضح ذلك من ملامح المقاتلين وانفعالاتهم، إذ تنتصر الحياة على الموت وتحقيقا للربح من خلال الانتصار على الأعداء وخلود المقاتلين، فالنص جسد الصراع في الواقع بين القوات العدو التي تهدف إلى موت الإنسان والثورة على هذه القوات في محاولة الحفاظ على الحياة.

إن الروايات التي تهدف إلى انتصار الثورة في الحفاظ على الحياة تنجح في بناء دلالتها في تحقيق أمنية المقاتل والكاتب في الوقت ذاته الذي يعبر بوعي عن مأساة وطنه فوجد استجابة في تحولها إلى فعل حقيقي انتصر فيها(الاستجابة)على العدو الذي هو في حقيقته انتصارا على الظلم والاستبداد وتدمير آليات تحوّل الأحياء إلى الأموات والحفاظ على البقاء، حاول (عائد خصباك) أن يجعل من الثورة في رواياته إنسانا يحتمل الواقع، ومن ثمة استطاع أن يبث حياة جديدة في الواقع. إن الألفاظ الدالة على الحياة من اسماء الشخصيات(فؤاد، سعد، رافع وعبد الرزاق، والأطفال عمار، سهيل فراس، عذراء...الخ) تدل على انتصار الحياة على الموت، لأن الموت هنا موتا وجوديا يسعى إلى تحقيق الذات والمحافظة على البقاء، من هنا يمكن القول إن نجاح الثورة حقق قيمة فورية عرف الإنسان من خلالها صحة رأيه وخطأه فجاءت المقاومة موافقة في الحفاظ على الوطن والمحافظة على البقاء، ومن ثمة إن دفاع عن الوطن يشترك فيها جميع البشر بوصفهم دعاة الحرية من جهة لأن موت الوطن والإنسان هي وأد الحرية التي هي جوهر الإنسان وكينونته، فضلا عن إن المقاومة والدفاع عن الوطن والمقدسات واجب إنساني يعيّد إلى الناس حياتهم يوحي بولادة وطن يحلم به أفراده.

إن محاولة استقراء المدلولات النصية في رواية(الكبار والصغار) للبحث عن الاعتقاد والشكّ التي تثبت أحدى النظريتين أو تنفيها تحيّل الاعتقاد/ الشك بوصفهما علامتان إلى موضوع الشك والاعتقاد في مقاومة الأفراد عن وطنهم ومحاولة المحافظة على البقاء وانتصار الحياة على الموت أي انتصار الأقوى، استنبط الفكرة النهائية من المؤول الذي يكشف عن حقيقة الموضوع، فكشف المؤول إن اعتقادات الفرد في الدفاع عن وطنه يشوبه الشكّ عندما تحاول الشخصية تحقيق منفعتها، وهي تحقيق ذكرى تستحضر وجودها دائما في الحدث والذاكرة، فتثبت ملامح الشخصيات التي ضحت بنفسها من اجل الآخرين بوصفهم رفضوا الاستسلام وتغلبوا على عجزهم لولاهم لم تستعيد الأرض ولا الحياة من جهة، ومن جهة أخرى أن ما حاول (عائد خصباك) خلقه من شخصيات حية اتضحت ملامحها عن طريق أقوالها وأفعالها هي في الحقيقة سخرية من الذات الإنسانية إذ ينبئ بولادة ضحية أخرى من أجل بقاء السلطة وهيمنتها، فتدول صورة الثورة أقتضى ولادة ثورة أخرى حين يستدعي الأمر ذلك، أي أنها لغة استهلاك الأرواح والأنفس باسم البطولة والتضحية.

[1379]) الكبار والصغار : 137 .

[1380]) الكبار والصغار : 71 .

ـ المقاومة الاقتصادية والتيه السلطة السياسية:

وتستمر رواية (سوق هرج) بالولوج في حالة الاعتقاد والشك اللذين يقومان في تفصيل حالات استلاب ورسخ مفاهيم نفعية تخدم فئة دون أخرى عن طريق تقليب الأساليب السلطة الحاكمة سواء أكانت اجتماعية أم ثقافية أم معرفية، بالرغم من تغير الأنموذج الذي يقدمه (عائد خصباك) ليتوسع في عرض تفاصيل تتداولها تعيش في الإنسان وتتداول بصورة مستمرة، اقتضى تداولها الهيمنة والاستحواذ واستهلاك حقوقه في ابسط تفاصيل حياته، وهكذا نرى شخصيات تظهر ضحية لمفاعيل علاقات اقتصادية أنتجتها استلاب السلطة الاجتماعية غايتها السيطرة على العقل والهيمنة على مجريات الواقع؛ فالدين أصبح ذا مصدر بشري صنعه المجتمع عبر مجموعة من القوى الغيبية حفاظا على قيمه وأخلاقه يحمي من يلتزم به ويعاقب من يخرج عليه، لا علاقة للدين بالهداية، مما أدى إلى خلق نوع من الفراغ الروحي والقلق والخوف، إذ جاء هذا الفعل للدين من خلال استغلال الوظيفة الروحية للدين وجعلها تصب في منفعة القوى السائدة حتى تكون لها الشرعية في تدعيم فكرها وترسيخ معانيها؛ تكونت نتيجة ذلك عقلية طفلية ترى الدين من منظار المخيال الشعبي الذي يتعلق بالخرافة والسحر والبدعة بوصفها الوسائل التي تضمن سعادة الإنسان وتحقيق ما تروم له نفسه، بهذا الاعتقاد يحاول الفرد التماهي في المؤسسة الدينية، فتكون نسبة القوة التي يشعر بها تقع داخلها–القوة– فيكتسب الفرد استقلاليته وغناه المادي والروحي والبحث عن أسس ينتهجه في سلوكه ويميزه عن غيره، حيث يتجسد هذا المعنى في شخصية (أم الشيخ باقر) بشكل قناعات متولدة عن طريق الاعتياد، بعد ذلك تحول هذا الفعل إلى سلطة ثابتة في اللاشعور الذي يتأرجح فعلها بين النفي والإثبات، عندما استعانت بـ(الحاجة زهرة) بوصفها تكشف الغيب على مستوى الحدث والشخصية؛لأنها حجت بيت الله ثلاث مرات وتختم القران مرتين في شهر رمضان، فتكون بذلك (الحاجة زهرة)تعبيرٌ عن صورة القلق والخفاء والسحر، وفي المقابل تواجهها فكرة النفي، لدى (أب الشيخ باقر)، فما دام أنا مسلم إذاً يتوجب علي الاندفاع وراء وجدان المحيط الذي يعيش فيه: ((ساعة ولادته أطلقت عليه والدته اسم حيوان لكي يعيش فما عاش لها ذرية، مات لها قبل ستة أبناء وبنات بعد ولاتهم، وعبثا حاول أبوه أن يختار له اسما آخر غير حيوان، إلا أن الأم أصرت على هذا الاسم عملا بنصيحة الحاجة زهرة التي تختم القران في شهر رمضان مرتين، ومعروف عنها أنها حجت بيت الله في مكة ثلاث مرات، ولها جن صالح يكشف لها الحجاب فترى مالا يراه غيرها من الناس الأسوياء، فهي قد رأت لها مناما، كانت فيه الأم تطعم الرضيع تمرا ولبنا عند ضريح السيد ابن طاووس صاحب المقام الصغير المجاور لمنزل الأم المتلهفة للمولود، وكانت في المنام تنادي عليه بذلك الاسم، فاستبشرت الأم للرؤيا واستقرت على اسم حيوان اسما للوليد، لكن الأب لم يرضخ وإن كان في قرارة نفسه قد اعتبر ذلك فألا غير طيب، فهلا ينقصه إلا أن يكون ابنه يحمل هذا الاسم، بعد طوال الانتظار، وبعدما ضاقت عليه سبل الرزق، واختنقت به الحال بعزوف الناس عن شراب العرقسوس الذي يحمله كل يوم قاطعا زحام الطرقات والأسواق بمحلة الجامعين والمحلات المجاورة))[1381]، يهدف هذا الحوار إلى إقامة علاقة ما بين الخطاب المعيش في اللاوعي القصدي والذات الخيالية التي صنعت أنموذجا يدل على القوة والجرأة واستبدال ما هو حقيقي بآخر خيالي، انتقلت من الصورة الذهنية إلى صورة موضوعية، يهدف هذا الانتقال إلى تغيّر نتائج نظام الواقع وتشكيل نظام جديد منشأ على الحلم والخرافة والسخرية، ونبذ القيم الأصيلة للفرد، وهو في حقيقته، الاستسلام لسلطة القوة والقيم الثابتة المتحكمة في مصير الفرد وحراك المجتمع، ويتضح ذلك من استشعار أحد الطرفين–امّ الشيخ باقر– أهمية هذه القيم وجدواها، ومن هنا يكون استسلام (أمّ الشيخ باقر) يبيح قبول كل سلطة سواء أكانت ذات مظهر خارجي أم مضمر؛ لأن المجتمع الذي تعيش فيه يتحرك في وسط فاقد للمعنى وللحقيقة، بعد أن نفى قدرة الخالق ووجوده وارتكانه إلى عبد من عبيده، بوصفه يحقق مطالب آنية ومحسوسة:((اشترت الأم دستة شموع بعد أسبوع واحد من الولادة، وعند مقام الشيخ طاووس قادها ممر ضيق ملطخ بالحناء إلى مكان شبه دائري مفروشة بعض أرضه ببعض الأغطية، وقد كتبت على جدرانه آيات قرآنية وعلقت الأدعية والزيارات عليه...وانتظرت فمر الأسبوع الثاني نالت بركة السيد طاووس ولم يحدث للرضيع سوء، ومر الأسبوع الثالث ثم

[1381]) سوق هرج : 18، 19 .

الرابع وانتظرت شهرا بعد ذلك كنست ارض الصريح وأطلقت في جوه البخور قبل صلاة كل مغرب... وكانت بعد ذلك تعود إلى بيتها راضية تناغي وليدها، تحمله بين ذراعيها متباهية أمام جاراتها بأن أصبح لها الآن ابن حالها كحال بقية النساء في المحلة))[1382] وتبدو الذات تواقة إلى تحقيق التأدلج مع الثقافة الاجتماعية بمختلف تمظهراتها الدينية والسياسية والأخلاقية...الخ، فضلا عن تبني أسلوب التنميط المكرر للنسخ البشرية، التي تقوم تلك الثقافة الاجتماعية بتكريسها وإعادة إنتاجها وهي العادات والتقاليد المتفق عليها عامة الناس؛ كونها تحقق نتائج ناجحة وهي النتائج المفيدة والحقيقية، وهذا ما يدفع الذات الانتماء إلى عالم الآخرين الزائف، وهجران عالمها الخاص، فهي استعانت بـ(ابن طاووس)؛ لتحقيق التوافق مع بيئتها، ممّا يحقق لها البقاء، إيمانها أن (السيد ابن طاووس) هو الوحيد الذي يحقق لها تلك السعادة، مما يثبت محدودية تفكيرها.

وكذا تحاول شخصية (أم الشيخ باقر) إلى إثارة ضجيج حول الثقافة السائدة، ويمكن معرفة نجاح هذه الثقافة وفشلها في تنميط أفرادها، عندما تهدف الشخصية إلى أن تكون من ضمن معايير الثقافة السائدة بأن تكون "أمّاً" شأنها شأن نساء جلدتها، فتتداول صورة (أمّ الشيخ باقر) على وفق القوانين المجتمع البيولوجية والقوانين الاجتماعية التي يقوم أساسها على عملية الإنتاج الاجتماعي، تلبيةً ثقافة مجتمعها، وتحقيق التواصل مع مجتمعها.

يعد ما قامت به (أمّ الشيخ باقر) تعبيرا عن ثقافة معرفية صارمة تحكم حياتها اليومية، لتحافظ على بقائها واستمرارية الجنس البشري بغض النظر عن رفضها أو قبولها ذلك، فالنمط الثقافي – الاجتماعي والحقيقة المكونة للذات الإنسانية التي تقع تقع الذات تحت تأثيرها يشكلان المنظومة المفاهيمية المتحكمة التي ترى المرأة كائنا منتجا وهذا الإنتاج يجعلها على قيد الحياة اجتماعيا.

إن الكشف عن المدلولات النصية في رواية سوق هرج التي تثبت ظاهرة الاعتقاد والشك أو تنفيها في تلك المدلولات نجد أن الاعتقادات المهيمنة في بنية المجتمع وضعت كقواعد للعمل وأداة للتفكير لضمان تأثيرها وصدمتها واستهلاكها وتداولها بسرعة، ولكي تتماشى مع تطلعات الفرد وميوله في مجتمع أصبح رأسماليا بالدرجة الأولى، حتى أصبحت اعتقادات الإنسان المشوبة بالشك ينظر إليها من واقع رقمي وأثيري من خلال شاشات العرض، أي أصبح الإنسان واعتقاداته ظاهرة تشيؤية وصورة مجسدة لسلع مادية تحقق المنفعة حتى تضمن بقائها، فـ (أم الشيخ باقر) أصبحت ليست أكثر من سلعة منتجة ويمك((تثمين هذه السلعة بكافة الوسائل التي توفر لها قيمة تبادلية مقبولة، وذلك عبر استنزاف إنسانيتها التي يتم هدرها قبل دخولها إلى هذا السوق، ثم إعادة تصنيعها في قوالب جديدة قابلة للاستهلاك والإثارة الجمالية والإعلامية، وتلميعها بكافة عوامل الإبهار لجذب أنظار المستهلكين))[1383]؛ وهذا الأمر يقلل من فاعلية وجودها الفعلي في المجتمعات البشرية؛ لأن عندما تكون الأشياء أو الظواهر خاضعة لشروط المجتمع التي تتفاعل فيه المرأة وتتفاعل معه تتميز تلك الظواهر بالتلفيق والخلط وتتداخل الأشياء، وكأن هذه الأشياء ثابتة وراسخة لا يعتريها الشّك لمّا لها من أثر في المصير الإنساني. هنالك الأشياء توفر معنى الوصول إلى ماهية المرأة وردود أفعالها تجاه الواقع الذي تعيش فيه، تقوم بإضاءة بناء الحدث الروائي شروطه التاريخية والمجتمعية، تلك الشروط التي تشكل جحيما تحيط بها سواء أكان هذا الجحيم وأد خصوصيتها أم تشيؤها واستهلاكها اجتماعيا كأحد السلع، جاء هذا نتيجة عدم كفايتها واستقلالها من جهة ومحاولة بناء المرأة ضمن نظام العبودية وتحكم الرجل و اقتصار دورها على تربية الأبناء وترتيب المنزل وطهي الطعام فضلا عن سعيها إلى اقتران اسمها برجل؛ لأن((السيدة المتزوجة، ما زالت تعتبر أهم من الفتاة الآنسة، فهي تتمتع بمزايا كثيرة، وتنال احترام الناس، أفلا يدل هذا أن قيمة المرأة في عرف المجتمع ليست بشخصيتها وثقافتها وسلوكها، أنما تأتيها من زوجها))[1384] وهذا يرمز للمرأة المسحوقة والمقهورة اجتماعيا، يقابل هذا الأنموذج صورة مغايرة للمرأة بوصفها كيانا أنثويا واعيا

[1382]) سوق هرج : 19، 20 .

[3]) النظرة الاختزالية للمرأة في ظل الواقع البراغماتي المعاصر، أحمد دعدوش (بحث على النت)

[1384]) التجزيئية في المجتمع العربي : 23 .

له حضوره المغاير الذي ينبأ بالتغيير، والمحاولة التشكيك بالصورة التقليدية التي أطرت المرأة بها، وهذا لا يعني التمرد على النظام الاجتماعي والأبوي، وإنما محاولة البحث عن مكانتها وقيمتها الاجتماعية، وأن تكون شأنها شأن الرجل تناغي حلمها وتسعى إلى تحقيقه، نتلمس هذين الأنموذجين في رواية(المقهى الاسباني) التي طغى صوت المرأة على أحداثها، شكلت صوتها خبرتها في الحياة ومنحته خصوصيتها الذاتية؛ فاثارة التوتر لما حولها تاركة ردود أفعالا تتعلق بالاحتمال والضرورة المستمدين من واقع المجتمع،إذ وجود المرأة في الرواية يقدم وظيفة تتعين من خلالها الشخصيات وتتحدد أبعادها، بالرغم من شخصية (نوري) التي تتحاور الشخصيات بوصفه –أحيانا– قناعا للراوي العليم، تكشف رواية (المقهى الاسباني) عن أحلام مؤجلة فشل تحقيقها في أرض الشخصيات الأم؛ لتعيد نفسها في بلاد غريبة عنهم –ألمانيا– لتصادف أحلام أبناء البلاد نفسها؛ فتتجمع مصائر الشخصيات في بلاد واحد؛ فتسعى الشخصيات إلى تحقيق أحلامها والوصول إلى عمق الوجود، لتنصر على فشلها وانتكاساتها، وبناء علاقات ذات طبيعة نفعية.

أتضحت صورة الشك للوصول إلى معتقد يضيء الطريق للتواصل مع القوانين الجوهرية التي تتحقق فيها الذات، عبر طابع سلالي يعيّد إنتاج النمط العائلي وإكمال البنية الاجتماعية، تجسد هذا المفهوم في شخصية(منى عبد المجيد) التي هاجرت من لبنان بعد عقد زواجها (خليل) الذي جاء من "ألمانيا"((للبحث عن امرأة صالحة تكون زوجة له))[1385]، في الوقت ذاته تبحث (منى) عن رجل يحقق فاعليتها وحضورها، تشعر من خلاله بأنها ليست زائدة في الوجود، في مجتمع يفضل المرأة إذا اقترن اسمها برجل، إذ((كانت منى عبد المجيد من بين جميع أفراد عائلتها أقلهم أهمية، فالفتاة تعتبر عانسا إن لم تكن متزوجة وهي في العشرين وتعتبر زائدة عن الحاجة وهي في الاربعين، وما أن تجاوز عمرها الستين حتى تكون قد أصبحت من الانضباط والنظام بحيث لا يحتاج إلى أي ضبط من الآخرين أو تقنين لان خط حياتها أصبح مرسوما ولا يمكن الخروج عنه بأي حال من الأحوال إلى إن تودع الحياة. وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها، لم تعرف أبدا ولا لمرة واحدة متعة الشعور بأهميتها من قبل أي شخص في العائلة...لم تحظ ببهجة أخذ القرار ولا لمرة واحدة))[1386]، تعرفت (منى) على (خليل) بعد الحادثة التي حدثت لها بظهور رجل اختفت أي علامة تدل عليه يطلب منها المساعدة للإنقاذ طفل ضربه حصان(الشيخ عبد الغفور) فعالجته وكان هذا أول شعور تشعر بأنها لها قيمة في مجتمعها، بيد أن هذه الحادثة والشخص الذي طلب منها المساعدة لا يوجد ما يدل عليهما، فاستغربت الناس من الحادثة لولا سلسلة المفاتيح التي أهداها له الشخص الذي طلب المساعدة والذي اختفى؛ لاتهمت بالكذب والتلفيق، مما أدت هذه الحادثة إلى شيوع خبر بأنها فتاة مباركة، تلقفها (خليل) بعد أن ضاق ذرعا في البحث عن امرأة ممن حوله، من جهة أخرى كانت (منى عبد المجيد) قناعا يستتر بها على جرائم القتل التي يقترفها بناء على طلب جهات ما يعدها (خليل) بأنها ((تصفية حساب مع شخص تعتبر الجهة التي أرسلتهم وجوده يشكل خطرا يهددها))[1387] فضلا عن كان "خليل" ((جاسوسا للغرب، وتدرج في الصعود إلى المراكز العليا في صفوف الحزب الحاكم في ألمانيا))[1388]، لتبدأ (منى) حياة جديدة بعيدة عن بلادها، فتشرع في بناء مشروعها في الخياطة في محل الملابس المستعملة[1389]، ومن ثمة تلتقي بـ(زهرة يعقوب) التي كانت ((بصدد تأسيس اتحاد للنساء يكون مركزا للقاء النساء المسلمات وتأهيلهن في مدينة كولن، فيه برامج تتضمن الاستشارات النفسية والتربوية وحلقات دراسية حول مواضيع إسلامية))[1390]؛ للطلب المساعدة منها في تحقيق حلمها في تصميم حجاب للشعر جديد

[1385]) المقهى الاسباني : 77 .

[1386]) المقهى الاسباني : 71، 72 .

[1387]) المقهى الاسباني : 93 .

[1388]) المقهى الأسباني :

[1389]) ينظر : المقهى الأسباني : 65 وما بعدها .

[1390]) المقهى الأسباني : 66 .

ومغاير ويلائم البيئتين العربية والغربية: ((لم تكن منى عبد المجيد قد عملت بعد في محل الملابس المستعملة التابع للصليب الأحمر عندما اتجهت الى محل القبعات الذي تديره زهرة يعقوب، وكان ذلك قبل عامين، وهناك قالت لها أنا لست خياطة محترفة، ويمكن أن أكون كذلك عندما يزداد إقبال الزبونات على ما اخط لعمله الآن،... كل ما أريده هو أن أفعل شيئا لغطاء الرأس يبدو عمليا وجذابا في الوقت نفسه لا يبدو للنساء المحجبات كالحجاب التقليدي))[1391] فضلا عن لم يكن يعجب (منى) ((تصميم العباءات السوداء الدقيقة الشفافة التي تظهر من تحتها فساتين تبرز مفاتن الجسد لأنها تستفز المشاهد لها للتلصص على ما تحت تلك العباءات المرصعة بتشكيلات الشذر المعدني البراق مثلما هو موجود في بلدان الخليج العربي، هكذا يتم تحويل الحجاب إلى عناصر زينة لمفاتن المرأة))[1392]،تريد من خلال أن تقدم للعالم نفسها كامرأة محجبة ومسلمة أي تكون((لغة كونية، هو جلدتنا الثانية التي نتمكن من خلالها إرسال إشارات باتجاه العالم المحيط، لكي نتوصل إلى تعبيرات نقول فيها للعالم من نحن))[1393]، إذ ما دام هي مسلمة يجب أن تكون محجبة. بدأت لدى (منى) حالة الانتقال من مجتمع المنفعة المادية الاقتصادية إلى الاعتقاد بمرجعية دينية للسلوك الاجتماعي، وهذه جميعها مؤشرات على قوة الدور الذي يؤديه الدين بوصفه سلطة داخلية في حياة الأفراد، إذ أصبح دور الدين جوهريا في التصرفات والسلوك الاجتماعي، بيد أن ما تحاول إثارته (منى عبد المجيد) الاشتراطات المفروضة على المرأة المسلمة وغير المسلمة والقواعد المسموح والممنوع ويعد أي تجاوز عليها تجاوزا على قيم اكتسبت طابع التقديس، إذ تحصر هذه الاشتراطات والقواعد المرأة في علاقات ذات طبيعة انفعالية والعاطفية فاقدة للعقل لذا اختزلت وظيفتها في تدبير شؤون البيت أو العمل في حدود البيت وعندما تكون للمرأة حرية الحركة شأنها شأن الرجل،أو تكون قادرة جسديا وعمليا ووظيفيا تصبح تعيسة تبحث عن الملاذ التي يرجعها إلى تلك الاشتراطات، فالصورة الأولى أي المرأة المقيدة اتضحت في شخصية (منى عبد المجيد وزهرة يعقوب...)؛ فـ(منى عبد المجيد) انتظرت خمس سنوات تحاول إنجاز مشروعها لتصميم لباس للمرأة المسلمة وعندما بدأت بوادر حلمها للولادة تهافت مع الريح، لأنها ((خالفت الشريعة التي يسير عليها زوجها))[1394]وكانت سببا لرجوعها إلى بلدها الأم(لبنان) بلا رجعة.

إن (منى عبد المجيد) أنموذج رمزيّ إلى الامتداد التاريخي للثقافة العربية التي تمارس سيطرتها الكاملة على العائلة وطرق تداول الاستهلاك الأسري، والطريقة التي تؤدي دوراً تنظيمياً، في تحديد علاقات الرجل دور المرأة المنحصر فيما يقتضيه الرجل منها فهي كإحدى النساء اللائي قدمن إلى ألمانيا ((كزوجة لرجل يعيش في ألمانيا قالوا لهن البسن هذا لأنه محتشم ولا يظهر من جلودكن فيلبسنه ولا تلبسن ذاك الفاضح المتهتك فيبتعدن عنه، لم تناقش أحداهن وضعها ولم تتجرأ أن تسأل لأنها أصلا لا تريد أن تحمل أسئلة مرة سمعت إحداهن تقول لزميلتها: هنالك نساء اللواتي لا يرتدن الحجاب ملتزمات بالتعاليم الإسلامية أكثر من اللواتي يرتدن الحجاب. فأجابتها: اسكتي،لا تقولي ذلك لئلا يسمعك غيري وقد أفزع منى ذلك، لا تدري لماذا قالت لها ذلك، ما الذي تعرفه هي من التعاليم غير هذه المعتقدات التي نمت معها منذ أن كانت صغيرة))[1395] تلك الصورة النمطية للمرأة الذي أنتجه النظام الأبوي حمل نوعا واحدا تتداوله الثقافات عبر التاريخ إذ اختزلت المرأة((إلى جسد ضعيف مسكين))[1396] وهذا المفهوم يرجع إلى (أرسطو) الذي يرى((أن النساء رجال ناقصون، وأنهن كائنات إنسانية تفتقد إلى ما هو جوهري في طبيعة الإنسان، وهو

[1391]) المقهى الأسباني : 65 .

[1392]) المقهى الاسباني : 67 .

[1393]) المقهى الاسباني : 67، 68 .

[1394]) المقهى الاسباني : 129 .

[1395]) المقهى الاسباني : 127، 128 .

[1396]) صناعة الآخر في المخيال العربي (تمثيل الآخر في ألف ليلة وليلة أنموذجاً)، عباس العلي، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع1، س2009 : 36 .

القدرة على التفكير، وعلى الرغم من أنه اعتقد أن النساء قادرات على التفكير نوعاً ما، إلا أنه كان يظن أن طبيعة الرجل هي أن يفكر بطريقة مميزة إنسانيا، ولكن طبيعة ووظيفة المرأة هي التناسل كالحيوانات))[1397] وهذا الاشتراط يحافظ على المرأة ويحقق قيمتها اجتماعيا، ومن ثمة إن ما تم التوصل إليه يطالب النص المرأة بارتداء الحجاب؛ لأنها مسلمة وينفي وجود امرأة تلتزم بتعاليم الإسلام بدونه أي الحجاب بوصفه دلالة عقلية حاضرة في عقل المسلمين وصلت إلى حالة الإدراك اليقيني وجُعلت أحدى الوسائل الحفاظ عن المرأة، فدل على إثبات أمر نُظر في تنظيره وبقي بعيدا كل البعد عن فهم حقيقته وإدراكه سواء في الماضي أم الحاضر وستبقى للمستقبل من دون الوصول إلى معرفة أو إدراك حقيقته(الحجاب) وإتباع أصوله:((بعد أيام ذهبت إلى محل القبعات وقد سألتها زهرة صاحبة المحل عن الأمور وكيف تسير معها فقالت: ردود الأفعال متحفظة لحد الآن فالضوابط الاجتماعية قوية جدا في المجتمعات المسلمة هنا حتى عند الفتيات الصغيرات، واللواتي أعجبتهن فكرة التعبير عن أنفسهن، لم ينفذنها لأنهن قلقات بشأن ردود الأفعال من أولياء أمورهن))[1398]، فالصراع داخل النص يثير جدلية الشك والاعتقاد، فالدين الإسلامي لا يقتصر حضوره شكليا في حياة الإنسان بل هو((هبة إلهية ونور رباني، يشرق على البشرية لهدايتها إلى سواء السبيل))[1399]،فما تقوم به المعتقدات الدينية في فرض اشتراطاتها على المرأة لم تكن تنبع منها أي المعتقدات بقدر ما هي مظاهر رمزية واجتماعية تحقق منفعتها بذريعة مرشدة للسلوك والعمل من خلال فرض هيمنتها على الإنسان وأحكامها وتعاليمها بصورة وراثية تجعل من سلوك الإنسان وعمله متقرر ومتحقق مسبقا؛ لذا حاولت (منى عبد المجيد) التشكيك بهذه المعتقدات من أجل استيعابها وفهمها وأدراك حقيقتها، بوصف القواعد نتائج مسبقة وراسخة من دون التصادم أو التمرد عليها،فوجدت أن هذه المعتقدات راسخة في بنية المجتمع وهي التي تولد معرفة الأفراد وثقافتهم، ومن ثمة تقلص عمق التجربة لتحقق الإذعان وعدم خوض جدلا مع حركتها الباطنية أو الظاهرة.

يمكن القول إن ظاهرة الثبات وعدم تغيّر معتقدات الفرد المسلم يكشف عن إن المكان لا يشكل دورا تأثيريا في الشخصية الذي تتحرك فيه وتشكل ساحة وجودها؛ لارتباط المكان بثقافة مجتمعه (الأم) التي يتوارثها والذي يشكل دالة اجتماعية ترسم مستقبل الشخصية وتجربته الذاتية في التعامل مع المكان؛ فيكون دور المكان الذي تعيش فيه الشخصية مختلف عن المكان الذي صقل ثقافته وتجربته بوصفه– المكان– شخصية سردية فاعلة توجه الحدث وتحريك الصراع الإنساني: ((هذا النوع من التفكير ما زال متأصل عند هولاء الناس هنا على الرغم من وجود أربعة أجيال من المسلمين في هذا المكان))[1400]أي هناك خط ممتد بين حاضر الشخصية وماضيها؛ فترتب على ذلك انعدام حدود الوعي للمكان الذي تعيش فيه شخصية (خليل) بوصفه أنموذجا للرجل المغترب عن وطنه ورمزا للشخصية المسلمة خارج بلدها من جهة، ومن جهة أخرى لم تحاول شخصية(خليل) بناء وعيّا يتجانس مع البيئة التي ينتمي إليها، وهذا يدل على ارتباط وعيّ الرجل بثقافة رجعية لم تحاول الانتقال من مكان لآخر، فضلا عن إن المكان ظل محدودا ومنغلقا على الشخصية الآمرة(الرجل) التي سعت إلى المحافظة على قيود العادات والتقاليد بحدود السيطرة على المرأة، حتى أصبحت علاقة التأثر والتأثير لها منعدمة بين المكان وسلطته المادية والمعنوية والشخصيات لانعدام التوافق الحقيقي بينهما، وكأن السلطة الاجتماعية المحيطة بـ (المرأة)في كل ما تملكه من عناصر من أجل إخضاع الجسد الإنساني لسيطرتها، أما وعيها فقد أصبح سلطة داخلية يقودها للتطلع إلى المستقبل لكنه يتصادم مع السلطة الخارجية التي تحاول تطويعها وفرض سيطرتها عليها، إلا أن شخصية (منى عبد المجيد) في الرواية تنهزم ويتهافت حلمها لامتلاك حريتها وبناء جوهرها الإنساني وسط زحمة الصراعات، إذ تقول:((حصل ما كنت أخاف أن يحصل... باع ماكنة الخياطة مع أدواتها، كان ذلك يوم أمس رجعت البيت وعندما لم أجدها، ما قدرت على السكوت، قلت له كل شيء إلا ماكنة الخياطة، أنت تقضي عليّ، لعن تلك الماكنة واليوم الذي اشتراها

[1397]) أخلاق العناية، فرجينيا هيلد، تر ميشيل حنا ميناس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2008، 87 .

[1398]) المقهى الاسباني : 83 .

[1399]) تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط : 114 .

[1400]) المقهى الاسباني : 83 .

فيه، واليوم الذي سمع تلك الحادثة التي وقعت لي في القرية، لعن اليوم الذي جاءت فيه ابنتنا إلى الحياة، أنا اعرف أن الماكنة تلك سببت له مشكلة كبيرة... لأنها السبب في تعرفي إلى زهرة التركية التي هي في رأيه شيطان برأس ملائكي))[1401] فـ(منى) غير قادرة على التشكيك والكشف عن المعنى الحقيقي للوجود والمعرفة، عندما تسلك طريق حرية التعبير عن الذات؛ لأن تلك المهمة بالغة الصعوبة، تفوق قدرتها وإمكانياتها الذاتية، فضلا عن لا يمكن تغيّر المنظومة الثقافية التي نمت مع منذ نعومة أظافره وتوارثت معه وتظهر ملائمة إلى حقيقة العصر وتتشابه مع منطلقات ودوافع المحركة للإنسان داخل بلده أو خارجه. وصفت زهرة بهذا الوصف (شيطان برأس ملائكي)؛ لأنها كانت السبب في تعاسة من أرادت التحرر أو تغيّر مسار قيود العادات والتقاليد،إذ رفض المجتمع (زهرة)ووأدها اجتماعيا ومعرفيا وثقافيا؛ لأنها تشارك الكفار بإمامتها النساء في الصلاة والإمامة حق من حقوق الرجل وحده إذ يقول (خليل) زوج (منى عبد المجيد): ((هذه المرأة تشارك الكفار الذين هنا بالإساءة إلى الإسلام، إنها تلعب بالنار عندما تجاهلت وبإصرار منه التقاليد الإسلامية ذات التاريخ الذي أمتد من زمن الرسول والخلفاء الراشدين إلى اليوم، وإلا فكيف أن تخطط بإمامة المصلين في صلاة الجمعة))[1402]، فالنص أصبح على وفق هذا السياق لا يحتمل القراءات ولا الجدل، فالاستفهام الإنكاري ينفي عن قيام المرأة بالإمامة، ففي الإنكار نوع من التعجب لعدم توظيفها عقلها فيما ينفعها، يعرضها فعلها إلى المعاقبة والنبذ؛ لأنها لم تخضع للمعايير والمقاييس المعلومة في الإسلام وخضعت لهواها، فأصبحت (زهرة) بهذا المفهوم لا جدوى من منطقها ولا وزن للحجج التي تقدمها من أجل الدفاع عنها، من جهتها هي وجدت سماعها لهم لا يؤدي إلى فائدة فهم لا يملكون أي استعداد للاستماع أو إتباع عقولهم في البحث في التاريخ عن دور المرأة في الإسلام وإمامتها منذ زمن الرسول والخلفاء الراشدون، وقد استنكرت (منى عبد المجيد)عليهم ذلك بأن إمامة المرأة يعود إلى اختلاف الثقافات وهي((سمعت وقرأت أنه في عهد النبوة قامت المجموعات النسائية بالصلاة معا على أن تؤم أحداهن الصلاة. لقد سمعت شيئا عن أم ورقة التي حفظت القرآن غيبا وكانت عالمة هامة بإمامة الصلاة في أهلها وكان لها مؤذن ينادي المؤمنين للصلاة، وهكذا تبوأت أم ورقة مهام الإمام دوريا إلى أن توفيت في عهد الخليفة عمر. فهل معنى ذلك أن المرأة قادرة على أن تؤم الصلاة في نطاق العائلة فحسب أم هذا يعني أن المرأة قادرة مبدئيا على الإمامة في الصلاة على أن يتوفر لديها، كالحال مع الأئمة الرجال بعض الشروط اللازمة كالكفاءة وقبول عامة المؤمنين والمؤمنات لها كونها على استعداد لتبوء هذا المهمة. وكلمة إمام كما تفهمها هي قيادة جماعة من الناس بالمفهوم الديني... ومع أنها لم تتكلم أخذ يهددها بمنعها من الخروج من البيت إن التقت بها مستقبلا))[1403]فهي ترى أو تشعر أن الرجل يعرف الحقيقة ولكنه عطلها ولم يفكروا فيها ولم يهتدوا إلى وظيفة الحقيقة فحصول النتيجة مرتبط بحصول السبب ونتيجة الإنكار مرتبط بالمجتمع الذي جوّز للرجل حقّ التصرّف في المعتقدات الدينية الموضوعة بطرائق استحسنها على وفق استعماله وقد أورد النص رفضه للإمامة المرأة صراحة أو ضمنا ذلك لما تقتضيه ثقافة مجتمعه من لحظة زمنية معيّنة تعلقت بحدوث الفعل وعليه فإمامة المرأة جزء من المعرفة التي لا تتحقق بالتجربة أو التمرد وإنما يتوصل إليه باستعمال تغيّر المعتقد الثابت والراسخ في بنية المجتمع بالمحاولة والتكرار واليقيّن باستحقاقها والنظر بالدلائل إلى ذلك وإلغاء كل ما يعتريه الشكّ ولا يكون للفرد داخل المجتمع أي مجال للإنكار أو الشك، فقوة التغير وإثبات الهدف يكون ببيان المعطيات على أرض الواقع وتكون حجة على الفرد: ((كانت السيدة منى قد سمعت بمثل هذا الكلام عن زهرة، لكن ما الذي يمكن أن تجادل به زوجها الذي لا يريد أن يسمع شيئا في هذا الخصوص، كان الذي قاله هو العصارة التي توصل إليها من كلام كثير في هذا الشأن، هي فضلت السكوت لأن الكلام معه لا يأتي بنتيجة، تستطيع أن تقول هناك اختلافات في المذاهب الدينية عما إذا كانت إمامة المرأة للصلاة مسموحا بها حتى بالنسبة

[1401]) المقهى الاسباني : 179 .

[1402]) المقهى الاسباني : 69 .

[1403]) المقهى الاسباني : 70 .

للنساء أنفسهن وهذا يعود على سبب ما في التاريخ الثقافة...))[1404]؛ فما تحدث به (منى) محمول على قولهم، فالموقف لا يحتاج إلى قول بقدر ما يحتاج إلى تغير طريقة التفكير والسلوك وتبني موقفا يضع الفعل على جادة الصواب. فمثلما أتهم (زهرة) بالكفر، شرع الرجل إلى فرض منظومته الفعلية الأمرية في فرض هيمنته عندما تحكم في طرق تنقل المرأة والحدود التي عليها إتباعها على وفق الخطاب المعرفي النفسي للرجل الذي يميّز بين الرجل والمرأة على وفق الأحكام التي وضعها مسبقا، لأنها تتطابق مع واقعه النفسي أولا، ومن ثمة واقعه الاجتماعي، تقول (منى عبد المجيد) عن المرأة:((لم تر من العالم غير ما هو مرسوم لها بدعوى أنها إذا فعلت غير ذلك خالفت الشريعة ألم تأت هذه المرأة الأفغانية إلى هنا ولوحدها هل خالفت الشرائع السماوية والأرضية ؟ نعم يمكن أن تكون مخالفة لها لو كان زوجها من النوع الذي يرى أنها خالفت))[1405] يوحي النصّ بحالة الشكّ التي تعيشها الشخصية وقلقها بانتظار نتائج لمّا تراه من معاناتها داخل معتقدها وكأن المكان والزمان ثابتان لاقترانهما بسيطرة الرجل على المرأة كقانون ثابت يرفض استقلالها أوتثبيتا لحقها في الرفض أو القبول ما تروم إليه ذاتها، بالرغم من بروز حالة أنثوية تبذل محاولات للتحرر من السيطرة المجتمع وتقاليده ومعتقداته، إلا إنها تنبذ وتخرج من إطار الإسلام. بيد أن نجد الرجل يخرج عن نطاق قيود العادات والتقاليد، ويخرج عن نطاق بنية العلاقات الاجتماعية والأنماط السلوكية والمبادئ الأخلاقية التي يكون ملزما بخلقها؛ لتكون موجها لفعله ودوره داخل المجتمع، سعيا إلى تحقيق حريته الذاتية التي يحقق من خلالها حريته داخل المجتمع الذي يعيد إنتاج أفراده باستمرار بطرق متعاقبة، وتبدو علاقة الرجل والعادات والتقاليد يسيران بخط متواز لا يلتقيان إلا بحدود ظهور المنظومة الأمرية التي تنسب إليه وبما يحق منافعه المادية والمعنوية؛ ويترتب على ذلك ظهور سمات بدائية والتخلف المعرفي والفكري، التي تلازم التي تلازم الفرد الذي ينتمي إلى المجتمع التقليدي((توصلت إلى قناعة بأن الانحطاط الذي ينسب عادة للغرب يكرع الناس منه هناك بلا حساب أو تحفظ...))[1406]، ويبدو الاستغراب من فعل العربي والتصورات التي يحملها على الفرد الغربي بالرغم من أن تشكل الفرد العربي يغلب عليه طابع الأنانية والتمركز حول دائرة المصالح الخاصة وغياب الحرية الفردية لجميع الأفراد على حد سواء للتعبير عن ذاتهم، بالرغم من دور الحرية في خلق بيئة مثالية والقيم الإنسانية ذات الطابع الخيّر والنبيل أما فقدانها فقد يصبح قوام المجتمع((الانتهازية والوشاية والجشع، ويصبح الربح العاجل القيمة الثابتة الوحيد، أما ما يقابلها، فهو متغير متحول حسب المصلحة))[1407]؛ فيترتب على ذلك ذوبان المجتمع في ثقافة استهلاكية ودورانه في دائرة التسليع التي تصنع حاجزا بين الأفراد الجلدة الواحدة.

كشف المؤول الاستقرائي عن الشك في المعتقدات الدينية والعادات والتقاليد في المدلولات النصية للوصول إلى الفكرة النهائية من المؤول الاستقرائي للشك إثباتا أو نفيا، من خلال بناء فعل قرائي يستوعب الماضي والحاضر ومن ثمة((إنجاز وعي علمي بالتراث يضعه في سياقه التاريخي))[1408]، فاستنبطت الفكرة من المؤول الاستقرائي الذي يحيّل إلى الموضوع المباشر الذي يقول أن بناء المعتقدات الدينية والمجتمعية للممارسة التاريخية والاجتماعية المحركتين للمجتمع تتحدد على وفق السياق الاجتماعي والثقافي في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري، حتى أصبحت هي من تسير المجتمع وتوجهه وتؤثر به أكثر من السلطة الدينية التي أصبحت رأسمالا رمزيا تعمل السلطات الاجتماعية أو الفردية وغيرها استغلاله لتحقيق مصالحها عن طريق الآيات الأيديولوجية مثل الرفض أو التقنيع أو القوة.

[1404]) المقهى الاسباني : 69 . 70 .

[1405]) المقهى الاسباني : 128 .

[1406]) المقهى الاسباني : 150، 151 .

[1407]) ينظر : دراسة في روايات نجيب محفوظ، 105 .

[1408]) النص، السلطة، الحقيقة، نصر حامد أبو زيد : 14 .

وتمتد جذور الشكّ في الحقائق الثابتة التي أسهمت في تشكيل وعي الفرد داخل مجتمعه، تلك الحقائق التي بدأت بذورها بالسخرية ومن ثمة بالمواجهة حتى أصبحت من المسلمات التي لا تقبل الشك أو التمرد، حيث أسهمت في تكوين نمط ثقافي مغاير، تشكل منه وعي الفرد، ولذلك نرى تولد منطقة صراع بين الحقائق الثابتة والوافد الجديد، وبين الشرط الثقافي والاجتماعي لحقائق الفرد ومسلماته، وهو ما يمثل ميداناً للصراع متعدد الصور بطبيعته واتجاهاته، وهذا يؤدي إلى واضطراب القيم وضياع المقاييس وتهافت الحقائق التي تحدد مصير الذات عندما حاول الفرد الانتماء إلى عالمه الخاص بوصفه مقياسا للأشياء[1409] نهجت الذات من خلال هذا إلى سلوك مغاير عن الحقائق الثابتة بحثا عن الأصالة الحقيقية للذات الإنسانية، إذ ((إن الحياة ذات السلوكية الشاذة، تنمي أصالة عالية عند الإنسان، ومن هذه الأصالة تنتج إنجازات مغامرة إنسانية عظيمة))[1410]؛ فترسم من خلاله الذات الإنسانية علاقتها مع محيطها ومن ثمة سعيها إلى امتلاك حريتها. فشخصية (سعاد) في رواية (المقهى الاسباني)التي تقع تحت تأثير تنحو إلى تكوين رؤية تمنحها حريتها المطلقة التي هي الحقيقة المكونة لشخصيتها عير الانفلات من قيود المجتمع التي تمثل أنماطا خارجية غير أصيلة في انفعالها النفسي والوجودي، إذ إن (سعاد) شأنها شأن غيرها ممن جاؤا إلى (كولن) بعقد زواج –من (ناجي) العراقي المغترب كذلك في (كولن)–هربا من مجتمعهم المليء بالحروب والصراعات أو هربا من فشلهم الذي احتضر قبل ولادته، جاءت (سعاد) من العراق بعد معاناة وانتظار طويل بعد تعرض البلاد إلى الحرب وتفشي الموت والخوف، وتوقف إيقاع الحياة الطبيعي واستبداله بأصوات القنابل وأزيز الطائرات وفرار الناس من بيوتهم خوفاً من الغارات الجويـة وأصبح الموت يمنح بمجانية للجميع وفي البدء وجدت (سعاد) في (ناجي) عالما أثيرا يخلصها من ثقل العادات والتقاليد، غير أنها تجده مثقلا بتلك العادات ومتحكما في شروطها مستلبا لأصالة ذاتها((يتصرف معها كما لو كانت عاملة في الورشة فيطلب منها أن تفعل هذا ولا تفعل ذلك،لكن سريعا ما يعود إلى وضع العاشق فيتحدث معها برقة...كانت ترى في ذلك كله أملها وقد قبضت عليه، فهي لم تشاهد مثل ذلك كله من قبل... ولكن هذا لم يدم إلا أسبوعين بعدها بدأ يحدثها عن الورشة...وعن الألوان التي يحب التي تلبسها الأزرق الذي في موديل مرسيدس العام الفائت... فبدأت الحياة تأخذ شكلا جديدا وبدت الشقة كبيرة عندما كان ناجي يذهب إلى عمله))[1411]، وينتهي حلمها إلى صدمات مؤلمة تتلم بناء عالمها الخاص الذي تركت من أجله عالم طفولتها وحاضرها، فتتحول الصدمة إلى رغبة مدفونة في اللاوعي، تنتظر ولادة الفرصة تستعيد به ذاتها من جديد:((في يوم عطلة نهاية الأسبوع قال لها تهيئي للخروج، البسي ثوبك الأقحواني المغسول بندي الفجر ذلك في سيارات الأوبل بالفعل لبسته لكن، عندما نزلا إلى الشارع أراد أن يمسك أصابعها فقالت لا سأذهب في طريقي وأنت في طريقك، لا أريد أن استمر معك أكثر من هذا. اعتبر ناجي أن ما سمعه نكتة أو مزحة لكنه رأى نظراتها تقول ذلك أكثر من كلماتها، فكان في حيرة من أمره عندما غادرت وعندما اختفت كان لا يدري أين يبحث عنها))[1412]،إذ كان(ناجي) من يضيّق عليها نطاق الحرية، فما كان أمامها سوى أن تسعى لتحقيق حريتها والتخلص من أي سلطة تحكمها ذات مظهر خارجي؛ لاستشعارها بعبثية تلك العادات إذ حاولت (سعاد) أن((تضع الوجود الإنساني مكان الوجود المطلق وتقول: ليست ثمة كون غير الكون الإنساني، كون الذاتية الإنسانية)) [1413]، غير أنها لم تجد في (ناجي)، واستشعارها بالحرية كان ناقصا، لذا استدعت وجود آخر مدرك لما تعانيه من جهة، وتستطيع التواصل معه من جهة أخرى، وقد تمثل هذا الآخر لدي (سعاد) بـ (ستار) الذي ((كان يصعد الدرجات معها في كنيسة الدوم بالاندفاع نفسه إلى القمة، ولم يتخلف مرة، كانا في الأعلى معا على الأرض الخشبية يعرقان ويلهثان من شدة التعب فيمسح لها عرقها بمنديله وتمسح له عرقه بمنديلها.

[1409]) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد، تر: زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة : 428.

[1410]) الاستشراق "المعرفة . السلطة . الإنشاء"، إدوارد سعيد، تر د كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1981، 115 .

[1411]) المقهى الاسباني : ذ69، 170 .

[1412]) المقهى الاسباني : 172 .

[1413]) الإنسانية والوجودية في الفكر العربي ، عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، د.ط ، 1982م : 77 .

ويقال أن ستار وجدها وهي ضائعة فلعب معها لعبة الرجل الذي لا تستطيع منه فكاكا))[1414]، وهذا النزوع إلى الحرية لدى(سعاد) والتخلص من إشكال السلطة عن طريق رفض القيم الثابتة والمتحكمة بحركة المجتمع أدى إلى انزوائها في مكان ما لاستبدادها أو رجوعها إلى نقطة البداية ((دفع بها ستار إلى مأوى آمن،مكان كانت إحدى الجمعيات الخيرية قد أنشأته وقامت بالإشراف عليه للمطلقات أو اللواتي لا مأوى لهن بعد أن تعرضن للطرد من بيوتهن نتيجة خلاف عائلي ولكنه لا يقبل المكوث فيه أكثر من خمسة أيام بعدها على صاحبة الشأن أن ترتب وضعها في مكان آخر...كلما تتبع ناجي أثرها كان ينتهي في مسالكه أما عند مجزرة الديوك الرومية... أو عند كنيسة الدوم التي لم تصعد درجاتها من بعد اختفائها))[1415]، لأنها سعت إلى تحقيق غايتها في الغلبة والحصول على المال واللذة وبالرغم من سعيها إلى تحقيق التلاؤم أفكارها مع الواقع الاجتماعي الجديد الذي أيقظ وعيها وتصرفت في البدء بحسب وعيها؛ لإحساسها بأنها أصبحت حرة بكل أفعالها، غير أنها لم ترى أن الحرية هي ((ليست التحرر من القمع السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، بل التحرر من (الانا العبثية) من شعوري بلا قيمة حياتي، وتوتري بسبب عدمية وجودي، ولا يتم لي ذلك إلا بالاعتماد على إرادة قوية تستند إلى حافز، يستند بدوره إلى اعتقاد بوجود شيء حقيقي))[1416]، وها الشيء الحقيقي كان منعدما لدى (سعاد)، لأنها لم تعترف ولم درك أن مشكلة التلاؤم لديها كانت مع الحياة وليس المجتمع، وهذا أدى إلى العدم التحرر من ذاتها العبثية.

وكأن الباعث على ترداد ظاهرة الشكّ والاعتقاد في روايات(عائد خصباك) عامل لا يتصل بالمعنى الذي ابتغاه (عائد خصباك) بل هو تسرب يأتيه من ناحية أخرى غير حاضرة في أثناء كتابة الروايات، قد يسعى (عائد خصباك) إلى خلق قيم خلقية منسجمة مع مبادئ ومتطلبات الحياة الأساسية، تلك القيم التي لا ترهق الذات بمطالب مثالية لا تناسب قدراتها، كما يتوجب عليها ضمان انطلاق الذات وتوسيع آفاقها، وبهذا يصبح كل ما يخالف هذه المرتكزات تمردا أو ضربا للقيم والمرتكزات الثابتة في المجتمع اكتسبت هالة التقديس عبر الممارسات البشرية المستمرة.

يمكن النظر إلى ظاهرة الاعتقاد / الشكّ بوصفهما علامتين قابلتين للتفسير والتأويل واستدعاء قراءات ومعان جديدة تختلف من قارئ لآخر، لأن تداول أي ظاهرة يقتضي تداولها استحالة وجود تفسير معنى واحد للعمل الفني أو للظاهرة؛ بسبب التوظيفات المجازية والرمزية والأسلوبية التعبيرية في العمل الفني سواء أكان في الشكل أم المضمون،لذا فتفسير المعنى وتأويله؛ لأن العمل الفني أصبح منفتحا على قراءات وتفسيرات مختلفة أو ما تسمى على وفق (روتي) بلا نهائية المعنى إذ أن المتلقي أو القارئ فقط هو الذي يحدث عنده المعنى ويصنعه ويحدثه، إذ لا وجود لعلامة واحدة ثابتة لاختلاف منطلقات القارئ،تبيّن من خلال الاستقراء في المدلولات النصيّة عن ظاهرة الشك والاعتقاد التي تثبت أحدهما من دون الآخر أو تنفيهما ليحول إلى موضوعهما قبولا أو رفضا، فينصّ الموضوع أن الشكّ بدأ في كل الاعتقادات الثابتة والمقدسة في المجتمع بوصفها لا تحمل حقائق صحيحة أو حقيقية، لأن الاعتقادات مرتبطة بالإنسان الذي تحكمه دوافعه المادية والاقتصادية والجنسيّة، فضلا عن صراعه الدائم لتحقيق قداسته ومركزيته في الوجود بما يمتلك من قوة وهذا بحد ذاته يتطلب تغيّر في السلوك وتجديد في المواقف، وأصبح الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان بطرق مضمرة، بسبب خوف الإنسان من أخيه وتحقيق الأمان والطمأنينة، فينصبون دولة التنين حاكماً عليهم [1417].

أن توظيف الاعتقاد والشك في روايات (عائد خصباك)كان على وفق سياق يكشف عن تقنيات العملية للظاهرة وكيفية تمريرها من الكاتب –بقصد أو دون قصد– إلى القارئ؛ لتوسيع المحادثة (الاتصال)ما بينهما– الكاتب/ القارئ– ولما كانت رغبة؛

[1414]) المقهى الاسباني : 172 .

[1415]) المقهى الاسباني : 172، 173 .

[1416]) المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، سالم يفوت، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1، بيروت، 1999 : 63 .

[1417]) ينظر : دراسات معرفية في الحداثة الغربية : 26، 27 .

بوصف رغبة (عائد خصباك) صوتا يهدف إلى بناء الاتصال والمحادثة المنشئة المحادثة، ومن ثمة فـ(الاقتضاء السردي) لا يبحث عن اجوبة تقليدية من القارئ، وإنما يبحث عن متابعة الاتصال حتى تحقيق المنفعة وشوط نجاح منتجه، ويمكن أن تكون المحادثة ما بين العمل الفني والمتلقي في البحث عن العلامة وكيفية تشكلها وشروط نجاحها، فالقارئ مستهلك يحاول تحصيل استثماره يقدمه في تأويله وتفسيره القابل إلى التجديد والتعديل إذ يجمع ما بين الباث / المرسل والمتلقي والعمل الأدبي الارتباط ببعديه التبادل والمنفعة اللذين يحققان الجانب الاتصالي من خلال علاقة العلامة بمستخدميها.

كان بناء الاقتضاء السردي في عالم عائد خصباك الروائي على وفق رؤية (نيتشة) الذي يرى كل شيء قابل للظهور والعودة مرة أخرى مثلما هو قابل للانحلال والخضوع، أي أن الأشياء هي في عملية الصيرورة الدائمة حياة/موت، بهذا لا توجد حقائق يقينية بقدر ما توجد حقائق منفعية، لأن الحقيقة بالنسبة للفرد تبقى وهما خادعا، قد تمارس الخداع والتضليل والتفخيم، أي تمارس سلطة تتحكم في أفكار الفرد وتطلعاته التي هي في الحقيقة أشياء مادية يتوصل بها الفرد إلى حقيقته/المنفعة دمج الأشياء[14191418]، وبهذا تبقى رؤية(نيتشة) في صيرورة الأشياء واستمرارية تدفقها هي تمثيل عن رغبات الفرد الظاهرة والمضمرة، إذ لا يوجد فرد لا يبحث عن منفعته بكل عمل أو قول يقوم به سواء مع (الله سبحانه وتعالى) أو مع أقرانه، إذ هنالك غايات وأهداف من الأفعال والأقوال يرمي الأفراد إلى تحقيقها، بهذا تبقى القوانين أدوات وجدها الإنسان من اجل عملية إدراك الأشياء وطرق تحقيقها وشروط وجوده.

هنالك علاقة تربط بين الكاتب والقارئ للتحقيق المنفعة لكلا الطرفين وتختلف الحقيقة الكاتب والقارئ، لاختلاف منفعتهما، فالكاتب يدعي أن يملك الحقيقة والقارئ يبحث عن صيرورة الحقيقة عند الكاتب على وفق الحقيقة التي يملكها، لكن يبقى عالم الكاتب عالما كبيرا يشمل القارئ والمنافع والحقائق، يصب هذا العالم الأفكار والأشياء في العالم الروائي الذي يحمل المدلولات النصية التي تكمن فيه ما يريد الكاتب إيصاله للقارئ، ومن ينطلق القارئ لمعرفة صيرورة الحقيقة التي يبحث عنها أو الحقيقة التي انطلق منها الكاتب، كلا العالمين عالم الكاتب والعالم الروائي يصبان في العالم المسرود الذي يشمل الجانب الاتصالي بين الطرفين وهو بدوره يصب في العالم المتمثل/الظاهرة العينية والتصورية واللغة التي تعبر عن مقدرة الكاتب الإبداعية في التوصيل ومقدرة القارئ في الكشف ومعرفة رموز وشفرات النص.

المصادر والمراجع:

1- أخلاق العناية، فرجينيا هيلد، تر ميشيل حنا ميناس، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 2008.

2- إرادة القوة، فردريك نيتشة، ترجمة: فؤاد زكريا، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ط، 1970 .

3- الاستشراق "المعرفة . السلطة . الإنشاء"، إدوارد سعيد، تر د كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، 1981 .

4- الأصول المعرفية لنظرية التلقي، ناظم عودة خضر، مطبعة الأرز، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 1997.

5- الإنسانية والوجودية في الفكر العربي ، عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت – لبنان ، د.ط ، 1982م

6- البحث عن اليقين، جون ديوي ،ترجمة: احمد فاد الاهواني، دار أحياء الكتب العربية ،مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، 1960 .

7- البراجماتية ، وليم جيمس، ترجمة: محمد علي عريان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008 .

8- البراجماتية، والفلسفة العلمية، موريس كورنفورث، ترجمة: إبراهيم كبة، منشورات الثقافة الجديدة،بغداد، 1960 .

[1418] الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود،منشاة المعارف،الإسكندرية، ط1,2002 : 209.

9- التجزيئية في المجتمع العربي ، نازك الملائكة، دار العلم للملايين بيروت، ط2، 1980.
10- تمثيلات الآخر صورة السود في المتخيل العربي الوسيط " صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، نادر كاظم، المسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004.
11- الحداثة وما بعد الحداثة، عبد الله المسيري، وفتحي التريكي، دار الفكر، ط3، دمشق، 2012 .
12- الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، عطيات أبو السعود،منشاة المعارف،الإسكندرية، ط1,2002 : 209.
13- الحكماء السبعة، فان وسب، ترجمة : يوسف الخال وأنيس فاخوري، دار مجلة الشعر، المكتبة العصرية، ط 1، بيروت، لبنان، 1963 .
14- حياة الفكر في العالم الجديد، زكي نجيب محمود ،دار الشروق، ط1، 1982.
15- دراسات في الفلسفة العلمية والإنسانية، د قيس هادي أحمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2007 .
16- دراسات معرفية في الحداثة الغربية، عبد الوهاب المسيري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2006 .
17- دراسة في روايات نجيب محفوظ الذهنية"اللص والكلاب" الطريق" الشحاذ"، مصطفى التواتي، دار الفارابي، بيروت، ط3، 2008 .
18- رواد الفلسفة الأمريكية ، تشارلز موريس، ترجمة : إبراهيم مصطفى ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،1996 .
19- سوق هرج ، عائد خصباك، دار الهلال ، 2004.
20- صناعة الآخر في المخيال العربي (تمثيل الآخر في ألف ليلة وليلة أنموذجاً)، عباس العلي، مجلة الأقلام، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع1، س2009 .
21- الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد، تر: زكريا إبراهيم، مكتبة مصر، القاهرة ،د.ت.
22- في النفس والمجتمع العراقي، علي الوردي، دار السعدون، ط1، لبنان،2011
23- قصة الفلسفة الحديثة (السلسلة الفلسفية)، تصنيف : أحمد أمين و زكي نجيب محمود ،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1936 .
24- القمر الصحراوي ، عائد خصباك،دار الحرية للطباعة، بغداد، 1984 .
25- الكبار والصغار، عائد خصباك، دار الشون الثقافية، بغداد، 1985 .
26- كتاب التعريفات، الشريف الجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت، 1985.
27- لسان العرب، ابن منظور ، دار الصادر،(مادة حق)
28- مفهوم الحقيقة في الخطاب الفلسفي، جميل حمداوي، شبكة اللوكة.
29- المقاربة التداولية، فرانسواز ارمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، 1986 .
30- المقهى الاسباني ، عائد خصباك، دار الهلال، بغداد، 1983.
31- المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، سالم يفوت، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1، بيروت، 1999
32- النص، السلطة، الحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي،ط1 ،1995
33- النظرة الاختزالية للمرأة في ظل الواقع البراغماتي المعاصر، أحمد دعدوش (بحث على النت)
34- نظرية القيمة في الفكر المعاصر، صلاح قنصوة، دار الثقافة، 1981 .
35- نمو البراجماتية ضمن داجوبرت ضمن داجوبرت د.رونز، فلسفة القرن العشرين، مجموعة مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة، ترجمة،عثمان نوية، مؤسسة سجل العرب،القاهرة،1963 .
36- نيتشه"خلاصة الفكر الأوربي"، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط5، الكويت، 1975 .